

في تحول سياسى كبير
أرمينية تـُطالب باستعادة أراض من تركيا

ترجمة : سحر توفيق

بقلم : هاروت ساسونيان

منذ استقلال أرمينية فى عام ١٩٩١ ، كان قادتها مترددين فى التقدم بأية مطالبات محددة من تركيا عدا الاعتراف بارتكاب الإبادة الأرمنية . ولكن ، فقط فى السنوات الأخيرة ، بدأ بعض المسئولين الأرمن يتحدثون عن «إزالة آثار الإبادة» ، دون تحديد ما هى «الآثار» وما هى وسائل «إزالتها» .

ومع ذلك ، فى وقت مبكر من هذا الشهر ، أُعلن عن تحول كبير فى سياسة أرمينية الخارجية تجاه تركيا ، عندما نادى أغفان هوفسيبيان ، المدِّعى العام لأرمينية ، بعودة الأراضى الأرمنية التاريخية فى مؤتمر دولى لرجال القانون الأرمن فى يريفان . وهى المرة الأولى التى يُطالب فيها مسئول حكومى أرمنى رفيع المستوى بمثل هذا الطلب علناً من تركيا .

فى خطبة طويلة وشاملة ، صرّح هوفسيبيان بأن اعتراف مختلف بلدان العالم بإبادة الأرمن لا يزيد عن كونه مسألة أخلاقية وعاطفية . وداعياً للتحول إلى «الميدان القانونى» ، أشار المدِّعى العام إلى أن تركيا لكى «تُزيل من آثار الإبادة الأرمنية ، عليها أن تدفع تعويضات لورثة الإبادة الأرمنية ، وأن تُعيد إلى الكنيسة الأرمنية الكنائس والممتلكات التى لاتزال قائمة بإعجاز فى تركيا ، وأن «تُعيد الأراضى المفقودة إلى جمهورية أرمينية» .

وأصّر المدِّعى العام ، هوفسيبيان ، على أنه ما لم يتبن الأرمن هذا الموقف الجسور ، فلن يحصلوا على أية نتائج ملموسة فى المائة عام القادمة ، كما لم يحصلوا على أية نتائج ملموسة طوال المائة عام الماضية . وقدّم عرضاً قانونياً مفصلاً لكل الاتفاقات الدولية التى تُنظم العلاقات الأرمنية التركية ، منذ معاهدة برلين عام ١٨٧٨ ، حتى بروتوكولات ٢٠٠٩ التى وُقعت ولم يتم التصديق عليها . كما أعلن أن منطقة ناخيتشيفان هى «جزء لا يتجزأ من أرمينية رغم أنها محتلة من قبل أذربيجان» . وحثّ هوفسيبيان رجال القانون المجتمعين من كل أنحاء العالم على إعداد القضية القانونية لمطالبات الأراضى من أذربيجان وتركيا وتقديمها إلى الحكومة الأرمنية لتقوم فى النهاية بتقديمها إلى محكمة العدل الدولية (محكمة العالم) .

وفى العادة ، لا تحمل تصريحات المدِّعى العام وزناً كبيراً فى الشئون الدولية ، ما لم تكن من أجل حقيقة أن العديد من الرسميين رفيعى المستوى الآخرين ، بمن فيهم الرئيس سيرج سركيسيان ، ورئيس المحكمة الدستورية جاجيك هاروتيونيان ، ووزيرة المهجر هرانوش هاجوبيان ، ووزير العدل فى أرمينية هراير توفماسيان ، ووزير العدل فى أرتساخ (قره باغ) أراراد دانيليان قد أدلوا أيضاً بملاحظات حول عدالة التعويض فى مؤتمر رجال القانون. لقد كان واضحاً أن المدِّعى العام كان المتحدث المحدّد عن الحكومة الأرمنية للتعبير عن خط أصلب نحو تركيا كمقدمة لمئوية الإبادة .

وأمام مؤتمر رجال القانون ، وباستخدام لغة أكثر احتراساً مما تحدث به المدِّعى العام ، قال الرئيس الأرمنى : «سوف يظل من أهم قضايانا الحصول على الاعتراف الدولى بالإبادة الأرمنية ، وإدانتها ، وإزالة آثار عواقبها . وطالما كانت

الدولة الأرمنية قائمة ، فسوف يُحكم بالفشل على كل الجهود لإنكار هذه الحقيقة التاريخية ، ووضعها فى طى النسيان . فلابد من الاعتراف بهذه الجريمة العظمى ضد الإنسانية ، وإدانتها بصفة نهائية من قبل تركيا نفسها قبل الكل .

وبما يتفق مع التوجه السياسى الجديد للحكومة ، أعلن رئيس المحكمة الدستورية جاجيك هاروتيونيان أنه سيتم تشكيل لجنة خاصة لإعداد الوثائق القانونية الضرورية من أجل متابعة مطالب الإبادة الأرمنية .

وفى ختام المؤتمر ، أصدر المشاركون بياناً مشتركاً يُؤكدون فيه أن أولوية رجال القانون الأرمن ليست إثبات حقائق الإبادة الثابتة بذاتها ، وإنما إعداد وثيقة قانونية شاملة لـ «علاج آثار الإبادة الأرمنية» .

هذا التطور مرحب به فيما يختص بالوصول إلى توافق بين الحكومة وأرمن المهجر على أهداف ينبغى السعى لتحقيقها فى الذكرى المئوية للإبادة الأرمنية . ولكن ، لكى نتجاوز مجرد التصريحات العاطفية الملهمة ، ينبغى أن يتخذ القادة الأرمن فى الحال خطوتين :

١ ـ سحب توقيع الحكومة الأرمنية من البروتوكولات الأرمنية التركية غير المثمرة . ففى عشية الذكرى المئوية للإبادة ، من غير المتصَّور أن نتحرك إلى الأمام فى مجهودات مثمرة لتحسين العلاقات مع تركيا ، بينما نُعد ملف قضية للتعويض .

٢ ـ تشكيل فريق من خبراء القانون الدولى لبدء هيكلة القضية القانونية ضد تركيا فى المحكمة الدولية و / أو المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان .

وعلى الرغم من أن المتشككين قد لا يأخذون بجدية تصريحات السياسة الجديدة للسلطات الأرمنية ، فإن وزارة الخارجية التركية ليس لديها هذه الشكوك . ففى الأسبوع الماضى ، شجبت أنقرة المطالب الأرمنية الخاصة بالأرض ، وأعلنت غاضبة أنه «لا أحد يجرؤ على المطالبة بأراض من تركيا !» .

أرمينية والعـراق

قام السيد مراد مراديان سفير جمهورية أرمينية بالعراق بإجراء عدة مقابلات مع كبار رجال الدولة بالعراق . ففى المقابلة التى تمت مع صلاح المذلقى نائب رئيس الوزراء العراقى ، تطرّق الطرفان إلى ضرورة تنمية العلاقات بين الدولتين ، وتنظيم الزيارات المتبادلة لوفود ذات مستوى رفيع . كما أكد الطرفان على أهمية نشاط السفارة العراقية فى يريڤان . وبحث الطرفان مشاكل السياسة الداخلية بالعراق والاتفاقات التى تم التوصل إليها بين القوى السياسية فى البلاد . وفى المقابلة التى تمت مع روز نورى شاويس (وهى فى نفس الوقت الرئيسة المشاركة للجنة الحكومية المشتركة بين أرمينية والعراق) ، تطرّق الجانبان إلى انعقاد الجلسة الثانية للجنة الحكومية المشتركة ، والتى سوف تنعقد فى خريف هذا العام بيريڤان . وقد أشاد الطرفان بالجهود الملموسة التى تقوم بها بعض الوزارات فى اتجاه تنمية التعاون الأرمنى العراقى .

وقد تقابل السفير مراديان أيضاً مع خير الله حسن بابكر وزير التجارة العراقى الذى أكد على أهمية اشتراك أرمينية فى المعرض الدولى ببغداد عام ٢٠١٣ ، وأبدى استعداده تقديم المساهمة اللازمة للجانب الأرمنى فى المسائل التنظيمية . وخلال اللقاء الذى تم مع السيد مجيد حمد أمين وزير الصحة العراقى ، أبدى الطرفان رضاءهما الكامل عن التعاون ذى المستوى الرفيع بين وزارتّى الصحة بالبلدين . وطلب الوزير العراقى من السفير الأرمنى إبلاغ دعوته إلى نظيره الأرمنى لزيارة العراق .



٣٠ يونية ٢٠١٣
التاريخ على أطراف أصابعه

بقلم : أحمد محمد إنبيوه

تشهد مصر حراكاً سياسياً ملتهباً منذ اندلاع ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ أدخل مصر ، بل المنطقة بأسرها ، فى مرحلة انتقال غاية فى الدقة والصعوبة والحساسية . ومنذ هذا التاريخ ، وربما قبله ، ومصر تقف على فوهة بركان . وبمناسبة اندلاع ثورة ٣٠ يونية ٢٠١٣ ضد نظام الإخوان ، يُسعد مجلة «أريك» أن تُقدم لقرائها الأعزاء هذا المقال التحليلى لما جرى فى بر المحروسة ، ولازال .

إن ناظراً لخريطة مصر المحروسة بشوارعها وميادينها ، عشية ٣٠ يونية ٢٠١٣ لواجدها قد اصطبغت باللون الأحمر ، لون صخب الملايين التى غصّت بها الشوارع . إن مشهداً كهذا حرى بأن ينتزع الدهشة ، ويُشعر المتابع أن التاريخ ذاته فى ذلك اليوم وقف مشدوهاً على أطراف أصابعه ؛ كى يُسجل ويُوثّق ويقرأ ويُحلّل ملايين التفاصيل التى تكّون منها ذلك اليوم . كما أن المراقب لذلك اليوم يشعر أن «خريف الثورة» لم ينسحب بعد على ربيعها ، كما أن هذا الشعب بات «حريف ثورة» ، وفى نفس الوقت «غشيم ثورة» ؛ فأن تخرج بهذا الحشد المليونى الهائل وهذا الانضباط والنظام إلى أقصى حد متحدياً السلطة وأدوات قمعها وإرهابها ، فإما أنكَ متمرس أو مبتدئ ؛ فالخروج بهذا الشكل يحمل المعنيين معاً . كما يشعر المراقب أنه مادام الشعب فى الميدان ، فالثورة لم تبارح الميدان إلى الآن هى الأخرى ، يُشعرك بأن «أبناء الصمت» ودعوا ليل السكون الطويل بإزاء السلطة وأعلنوا راية العصيان . لاشك أن كل ذلك يدفع المتابع والمحلل لذلك المشهد ؛ إلى محاولة تفكيك وتفصيص عنقودية المشهد بمبضع جرّاح ماهر ، فهيا إلى غرفة العمليات .

ربما تكون البداية من لدن عتبات ثورة يناير ٢٠١١ ؛ حيث أن المزاج العام للمصريين بعد الثورة كان يتنفس أجواء الفشل والإحباط ، فعندما يعجز نظام ما بعد الثورة فى استيعاب آمال وطموحات وأحلام الجماهير ؛ فإن تساؤلاً عنيفاً يطرح نفسه حول جدارة العملية الديمقراطية كلها كآلية «مناسبة» للتغيير . ومن ثم ، يغدو السؤال التقليدى : هل الحل المناسب لذلك الواقع المأزوم هو ثورة ثانية فى غضون عامين ؟

وجوبية الثورة

منذ ثورة ٢٥ يناير وخروج كُتل متراصة من الجماهير من حالتها المتحجرة إلى حالة السيولة الثورية ، وقد

ماجستير
آداب دمنهور

أصاب البعض الوهم بأن كل الشوارع وكل الجماهير أصابها «المس الثورى» ، وأن سهم الثورية أصاب قلوب وعقول كل المصريين . لكن بمرور الوقت تكشفت لأولئك أن يناير بالفعل كأنها لم تكن ثورة لكل المصريين بل على كل المصريين ؛ إذ ظلت قطاعات من الجماهير لأسباب شتى بعيدة عن تأثيرات المد الثورى من جهة ، ولا تُؤمن بفكرة الثورة بالأساس من جهة أخرى . وقد كان وصول «الإخوان» لقمة السلطة دليلاً على صحة رؤى ذلك الفريق .

على جانب آخر ، كان ثمة فريق يتبنى رؤية «رومانسية ثورية» يرى فترة ما بعد الثورة من زاوية «الكمال الثورى» ؛ فكان يتوقع أن تُدار المرحلة الانتقالية بمنطق النقاء الثورى ، لا البرجماتية السياسية . ولذا ، كانت صدمة ذلك الفريق عميقة من الإغراض الذى كان يُدير به المجلس العسكرى المرحلة الانتقالية ، وبلغت الصدمة مداها بالتحالف المشبوه الذى تم بين المجلس والإخوان وقتها والموصوم بالمصلحية البحتة بين الطرفين .

وتحولت الصدمة إلى صدام مباشر بين المجلس باعتباره السلطة الحاكمة والتيارات والقوى الثورية ، وبلغ الصدام مداه فى أحداث العباسية ومحمد محمود وماسبيرو ـ تأمل رمزية الأماكن ـ وبذا تمخضت الفترة الانتقالية عن معادلة السلطة اللا ثورية فى إزاء شارع فائر ثورى ، بمعنى حدوث انفصال بين الثورة والدولة . وكانت قمة الدراما بتصدر «الإخوان» صدارة المشهد السياسى الرسمى فى الانتخابات البرلمانية والرئاسية ؛ بآلية الصندوق والانتخابات وحلولهم محل المجلس العسكرى كسلطة حاكمة ، فكان ذلك معناه أن التيار الأكثر برجماتية ومحافظة والأقل ثورية من بين الصف الثورى ، هو من فاز بنصيب الأسد من «تورتة السلطة» ، وربما كانت تلك بداية غير مثالية لحقبة جديدة من تاريخ مصر ، تناقضت مع مشهد مثالى ـ بالنسبة لأية ثورة ـ حلف الرئيس لليمين الدستورية فى التحرير رمز الثورة . أى أن نجاح «الإخوان» فى الرئاسة كان معناه بداية التناقض بين القول والفعل ، بداية مركبة لظاهرة تعدد أوجه السلطة ، بداية لعلاقة إشكالية مع التيارات الثورية ، بداية للاستخدام السوفسطائى لمعنى الثورة ؛ حيث صدّرت جماعة «الإخوان» أن الصراع والمنافسة الانتخابية بين قوى الثورة والفلول أو بين الثورة واللاثورة ، فهل بعد كل هذا يُمكن القول بأن النظام فعلاً كان نظاماً ذا سمتاً ثورياً كما تعهد رئيسه فى الميدان؟

كبّلت السلطة الإخوانية ذاتها منذ البداية بوعود ثورية ؛ كانت أعلى من قدرة الجماعة على الإنجاز وتتعدى ثورية الجماعة المحافظة بالأساس . لذا ، كان الفشل الذريع من نصيب برنامج «المائة يوم» من حكم الرئيس . إذ بنظرة سريعة على تلك الوعود ، نجد أنها دارت فى فلك الشرعية الإنجازية دون الشرعية الثورية ؛ أى أن نظام ما بعد الثورة ـ والقادم من باطن الثورة اتكأ فى إدارته للدولة على نمط ما قبل يناير . وقد لجأ «الإخوان» إلى تبرير ذلك الفشل إلى عدد من المعوقات مكثفة فى : الدولة العميقة ؛ التى تمتلك مفاصل الدولة المصرية ، والنخب المضادة للمشروع الإسلامى الإخوانى النهضوى ، وكذلك «الإعلام الفاسد» المغرض . وذلك فى تناقض كبير من تناقضات زمن الإخوان . المحصلة أن السلطة الإخوانية لم تُدرك أن البُنى الفكرية والاجتماعية لا يُمكن تغييرها بقرار إدارى . وهنا يُمكن القول ، أن تباشير أيام «الإخوان» فى الحكم لم تشى لا بثورة سياسية ولا بثورة اجتماعية . ونلتقط طرف الخيط لنقول أن نمط اللاثورة فى إدارة منظومة الدولة المصرية قد فاقم من الألم الاجتماعى المزمن للمسحوقين والمهمشين وحتى «مساتير الناس» ، فقد زادت وتيرة الاحتجاجات والإضرابات

والاعتصامات الفئوية ، على إثر تفاقم الحالة المعيشية ، وبعد أن «فاض الكيل» بأصحابها من الوعود طويلة الأجل . فكانت تلك بدايات لتكوُّن براكين من الغضب المكتوم ، التى قد تُزلزل الشرعية الثورية للإدارة الإخوانية التى عجزت عن تحقيق العدالة الاجتماعية أم الأهداف الثورية . وما كان من السلطة الإخوانية إلا أن استشعرت الخطر القابع وراء ذلك ، ولجأت لمسكنات وقتية كحل أولى ، لكن الحل الناجز ذهب لفكرة تحزيم مفاصل الدولة الحسّاسة بـ «أهل الثقة» ، أو ما أُصطلح عليه فى أدبيات المعارضة بـ«أخونة الدولة» . وكانت تلك مجرد بداية لدراما سوداء تتابعت فصولها ، وتداخلت مع أداء سياسى يُمكن تسميته بنمط «دولة الفرعون» لكن بأردية ثورية براقة من الخارج دون الجوهر .

كانت قمة تلك الدراما السوداء؛ الإعلان الدستورى فى نوفمبر ٢٠١٢ ، الذى ظهرت فيه أنياب الاستبداد سافرة بوضوح ، لكنها متخذة شكل السوفسطائية الثورية . وكانت تلك لحظة كاشفة ودالة على موقف حركات وتيارات الإسلام السياسى ـ عموماً والإخوان خصوصاً ـ من فكرة الديمقراطية ولبها الأثير «الأمة مصدر السلطات» . كما كانت بداية استخدام مصطلح الشرعية للدفاع عن نظام الحكم الإسلامى ، من باب «بنفس سلاحهم» ؛ أى الجدال بمفردات احترام الدستور والديمقراطية وشرعية الصندوق . تلك التى تبنى عليها المعارضة الليبرالية حججها ومنطقها وقاموسها الإعلامى . لذلك كان هذا الإعلان هو التأكيد الحاسم لكل «عاصرى الليمون» بأن استمرار «الإخوان» يمثل الخطر الأكبرعلى مصر الثورة . فكان لابد إذن من الثورة على هذا النظام ، الذى ما برح يُقّوض بنيان الثورة : فكرة وأشخاصاً وتيارات وقوى ثورية . وبذا ، كانت شرارة الاحتجاجات العارمة ضد «شرعنة الاستبداد» . ومن هنا ، كانت بداية ولوج شعار «يسقط . . يسقط حكم المرشد» إلى ساحات الاشتعال الثورى معبرة تماماً عن المزاج العام لقطاعات واسعة من الجماهير .

أعطى الإعلان الدستورى ، إضافة إلى فشل الإخوان فى إحداث أى تغيير حاسم على مستوى متتالية المعاناة الحياتية اليومية ، إضافة إلى غياب الأمن جنائياً وحضوره سياسياً فى أحداث محمد محمود ٢ والاتحادية ، وحادثة مقتل الجنود فى رفح خلال رمضان ٢٠١٢ . أعطى كل ذلك «قماشة عريضة» أو «مادة غزل» لوسائل الإعلام كى تخلق رأى عام ضد الإخوان، مما جعل الجماعة تُمارس عملية قصف بـ«المدفعية الثقيلة» معنوياً، وأحياناً مادياً كما فى حالة الصحفى الحسينى أبو ضيف ، مستهدفة تصوير الإعلام ورجاله على أنهم أبناء مبارك ونظامه وعصره ومصره . لكن يبقى السؤال : لماذا تحول اضطلع الإعلام بالدور التقليدى الذى تقوى به الأحزاب والكيانات السياسية فى معارضة ومناوئة النظام الحاكم ؟ بإختصار ، كما تعالت الأصوات بعد الثورة «مطلوب زعيم» ، تعالت أيضاً بـ «مطلوب سياسى» . ذلك أن السياسة التى ظلت عملاً «كرتونياً» خلال معظم حكم مبارك ، تركت بصماتها السيئة على بيئة ما بعد الثورة . فما كان ثمة حل آخر إلا أن يكون الإعلام بنجومه «الدسم السياسى» وقادة الرأى لبيئة سياسية فقيرة . رغم ذلك ، لم تكن ساحة المعارضة خالية تماماً؛ إذ تمخض عن الإعلان الدستورى ميلاد كيان جامع لقوى المعارضة تحت مسمى «جبهة الإنقاذ الوطنى» ؛ لتنسيق وتكتيل الجهود لمواجهة استبداد السلطة ، ومحاولات أخونة الدولة . لكنها فى النهاية كانت قوى معارضة وليست قوى ثورية ، والفارق كبير .

وبذا ، كانت الأجواء ممهدة لميلاد حركة سياسية

شبابية تُعوِّض خواء ساحة السياسة ، وتُجدِّد دماء القوى والتيارات الثورية . فكان ميلاد حركة تمرد هو «الترياق الثورى» للواقع السياسى المأزوم . وهنا نتوقف أمام تلك الحركة ، التى سحبت بساط الفاعلية الثورية من تحت أقدام قوى يناير ، كحركة ٦ أبريل وكفاية والاشتراكيون الثوريون وغيرها من الحركات ، فما التفسير ؟ .

جرت العادة ، أن التنظيمات التى تلعب دور المُمهد للثورة ، تفتقد إلى مُبرر وجودها بعد نجاح الثورة وانتهاء فعاليتها على الأرض . ورغم أن ثورة يناير لم تُحقق النجاح الكامل لكل أهدافها ، فإن ذلك لم يكن مبرراً كافياً لاستمرارها فى أداء دور نشط . ومع ذلك بقى لتلك الحركات والتنظيمات بعض الأدوار الثورية إلى أن يظهر كيان ثورى جديد يحمل على عاتقه ذلك الحمل . أضف ، أن قوى «اللاثورة» فى المجتمع المصرى نجحت خلال حكم المجلس العسكرى ، أن تجعل قطاعاً عريضاً من الجماهير يرى فى الثورة و«العيال بتوع الثورة» السبب وراء كل أزمة على مستوى الواقع المعاش ، تزامناً مع استمرار الاحتجاجات والاعتصامات على انحرافات السلطة . وكان كل ذلك خصماً من رصيد الثورة وشبابها لدى الجماهير ، لذلك كان لابد من أن يظهر كيان سياسى حركى جديد يستوعب ويُحدث التوازن الحسّاس بين حالتىّ الغضب من السلطة ومن شباب الثورة . بإختصار ، كان لابد من تجديد شباب الحراك الثورى . هذا فضلاً عن أن تمرد امتلكت ميزة نسبية عن نظيراتها ؛ هى الحركة على الأرض بفاعلية كبيرة ، والتسرب بقدرة فائقة إلى أنسجة الجماهير فى الريف والمدينة ، فى عوالم الطبقة المتوسطة والمهمشين على السواء ، وذلك بأساليب ولغة خطاب تقترب من قاموس هؤلاء الفكرى واللغوى . فمحور الحركة كله كان مجرد ورقة ، لكنها كانت مكثِفة لكل أفكارهم ، ومعبِّرة تماماً عن درجة عالية من الاحتجاج بأقل القليل . وفوق ذلك كله ، كانت تمرد تُحرك بإتجاه تجييش الفضاء العام باتجاه يوم ٣٠ يونية ٢٠١٣ . وما من شك أن قطاعاً كبيراً من الجماهير كان كالبركان الذى ينتظر فقط مجرد سبب للإنفجار . لذا ، كانت تمرد أربعة . . لا ثمانية عشر . وخرجت الملايين إلى الشوارع فى مظهر بديع ومبدع فى آن ؛ فقد صنعت الجماهير بتلاحمها وتزاحمها فى كافة الميادين ، بطول المحروسة وعرضها صورة بليغة ، تجعل من يرى المشهد من الخارج يُدرك أن بمصر فوراناً جماهيرياً عاتياً شكّل ثورة شعبية جامعة إلا قليلاً ، اختزلت ذاتها فى أربعة أيام فقط ، بما يفتح باباً كبيراً للتساؤل ، عما جعل ثورة ٣٠ يونية تنتصر بالضربة القاضية عكس ثورة يناير التى احتاجت لأكثر من جولة مع السلطة كى تصل إلى النهاية المحتومة ؟ بصيغة أخرى ، كيف كانت يونية أكثر نضجاً ، بما جعل الانفجار العظيم يغدو سريعاً وناجزاً وباتراً فى أربعة أيام فقط ؟

كان العامل الأول متمثلاً فى الإحساس«المركب» بالخطر والحنق والغضب ، الذى بدأ يتسرب إلى نفوس قطاع عريض من المصريين ؛ إثر الإخفاقات التى بدأت تتراكم وتتأكد ـ خاصة بعد المائة يوم الأولى ـ إلى أن دثر ذلك الإحساس القطاع الأعرض من المصريين بنهاية العام الأول والوحيد من حكم الجماعة . وكان بدوره كفيلاً كى يدفع جماهير الشعب للنزول من أجل استعادة كيان الدولة المصرية وأجهزتها وبنيتها القوية التى تعرضت للاهتراء . أو بالأحرى ، كان لابد من حدث عظيم يكسر حالة الغرق فى التفاصيل ، ويقضى على ذلك الإحساس المركب .

ثمة عامل آخر يرجع إلى الزخم الكبير ، الذى دخلت به الطبقة المتوسطة إلى المشهد التعبوى ضد السلطة الإخوانية . وكأنها تُعوِّض فشلها فى أداء دور طليعى ، كان وجوبياً لاستمرار ثورة يناير فى حالة «توهج» فكرى وعملى ، وفى تثوير المعمور البشرى

المصرى بكامله . وعلى جانب آخر أرادت أن تلعب دور «الفرشة الطبقية» للحراك الثورى فى ثوبه اليونيوى. وأن تكون أيضاً « الظهير الطبقى» ، بما تُمثله من مخزون إستراتيجى للأفكار والرؤى والاتجاهات الشعارات السياسية ، وكذا النخب الشبابية التى دوماً ما تلعب دور «شرارة البدء» فى الحدث الثورى . كما أرادت على ما يبدو أن تكون «حكيم الثورة الطبقى» ، الذى استوعب الدرس وقرّر فى موجة ثانية من الثورة ترتيب البيت من الداخل ، من حيث المسار والبناء السياسى المتسق مع أدبيات المراحل الانتقالية ، والدخول الحقيقى إلى المدار التطبيقى الفعلى والشفاف لعملية «العدالة الانتقالية» ، بكل ما تعنيه من معرفة وتسجيل ما حدث ، إلى تعويض المتضرّرين وجبر خواطرهم ، فالقصاص والمحاسبة . ورغم أن الثورة لا تأخذ وسمها إلا إذا كانت شعبية جامعة لكل الفئات والطبقات ، فإننا لا ننكر أن الطبقة المتوسطة ، لعبت دوراً طليعياً بامتياز .

كان من أهم ما خلّفته ثورة ٢٥ يناير ؛ أنها سيّلت ماء السياسة ، وأنزلته من ذُراه النخبوية إلى أرض الممارسة الواقعية ، فأضحت السياسة جيناً أصيلاً فى روتين الحياة اليومية ، فى العمل ، فى الشارع ، فى الأتوبيس ، فى التاكسى ، فى البيت ، حتى الأحاديث العائلية امتزجت بالسياسة ؛ أى أن الفضاء العام تم تسييسه . اقترن بحالة التسييس تلك تفجّر «ينابيع الوعى السياسى» للقاعدة الكبرى من الجماهير . فأضحت أكثر قدرة على تبيان دور السلطة وما يُناط بها فى الفترات الانتقالية ما بعد الثورات . كما لاكت الألسنة مُفردات تنتمى إلى أدبيات العمل السياسى من قبيل : الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والليبرالية والمدنية والقوى التقدمية والإسلام السياسى والدولة الفاشلة والعدالة الانتقالية والأحزاب السياسية والمجتمع المدنى والحراك الثورى . كل تلك مفاهيم ومصطلحات دخلت القاموس الفكرى واللغوى لقاعدة كبيرة من الجماهير . جعل هذا الوعى الجماهير ترى السلطة من زاوية «العقلية الجدلية» ؛ التى تضع السلطة فى موقع المساءلة والشك إلى أن تَثبت نيتها الحسنة . فقد أدرك المصريون على سبيل المثال خطورة الزواج الحرام بين السلطة والثروة ، حتى ولو كان متشحاً برداء الدين . ومما زاد من الظنون ، دخول القرار السياسى فى دائرة «الرسملة» ؛ حيث كانت الدائرة المقربة من رئيس الجمهورية تضم ستة من رجال الأعمال ، أسعد الشيخة نائب رئيس ديوان الرئاسة ، أحمد عبد العاطى مدير مكتب الرئيس ، وعصام وجهاد الحداد مساعدان ومستشاران فى الشئون والعلاقات الخارجية ، وخالد القزاز سكرتير الرئيس ، وعمه حسين القزاز عضو الهيئة الاستشارية للرئيس . وفى سياق متصل ، ثمة ما أكد على أن النظام الجديد اختار النهج الرأسمالى كفلسفة للنظام الاقتصادى المصرى ، وهى تلك التصريحات التى دأب قادة الجماعة على إطلاقها لتطمين الغرب على مستقبل مصر فى ظل اقتصاد السوق العالمى . ومنها تصريح لرجل الأعمال الإخوانى البارز حسن مالك ، لوكالة رويترز فى أكتوبر ٢٠١١ ، بعدم حدوث تغير جذرى فى النهج الرأسمالى للاقتصاد المصرى ، الذى كان متبعاً فى زمن النظام السابق فـ«السياسات الاقتصادية التى كانت متبعة فى زمن الرئيس السابق حسنى مبارك ، كانت تسير فى الطريق الصحيح ، لكن شابها الفساد والمحسوبية» . إن هذا يعنى شيئاً واحداً ، أن نظام الإخوان المسلمين لم يكن أقل رأسمالية من نظام مبارك ، لكن المفارقة أنها رأسمالية مهجنة بالنعت الثورى الإسلامى . لذا ، كان لا مفر من إعاقة التجليات السلبية لذلك التوجه بالثورة على النظام الذى اعتنق تطبيقه .

لقد كان عنف النظام وغياب العدالة الاجتماعية ، إضافة إلى تعدد وتعقد وتفتت خريطة المشهد السياسى فى زمن ما بعد الثورة ؛ أرضية خصبة لظهور تيارات سياسية لا تلتزم بمنطق النقاء والمثالية الثورية ، وتنتهج العنف للتعبير عن حالة الاستياء والسخط الجماهيرى على الأداء السياسى لنظام ما بعد الثورة . كان ظهور تلك الحركات ـ كحركة البلاك بلوك على سبيل المثال ـ يعنى ظهور جيل جديد من الحركات الثورية الراديكالية التى لا تتورع عن الانحراف إلى الأحمر القانى لإنجاز التغيير . ورغم أن ظهور حركة للتغيير السلمى كتمرد ، أُخذت من أرضية البلاك بلوك ، فإن استمرار السجال والصدام العنيف بين السلطة والجماهير لفترة طويلة خلال انفجار يونية ، كان سيُعطى المبرر المنطقى لتبلور نشاط جماعات وحركات العنف من جديد . ومن ثم ، كان ذلك محركاً لقوى الشارع الثورى ولقوى الحسم السياسى ـ المؤسسة العسكرية ـ أن تُنهى تلك المبارزة فى أقل زمن ممكن .

عُرف عن المصريين ، أن قيادة الشرق وزمام المبادرة فيه معقودة لهم حضارياً وسياسياً تناسباً مع وزنهم وثقلهم . لذا ، كانت صدمتهم كبيرة ، وإحباطهم النفسى عميق ، وكأنهم جُرحوا فى كرامتهم ؛ عندما كانت بداية الربيع العربى من المغرب العربى من تونس وليس من مصر . وقد بقى فى نفس وعقل المصريين الجمعى شيئاً من حسرة على ريادة مفقودة . وعلى ما يبدو ، أن المصريين ، وكأنهم كانوا يبحثون عن تلك الريادة ، إلى أن كان ظهور حركة تمرد ؛ كحركة احتجاجية شابة انتهت بثورة كاسحة . فكانت بمثابة «عودة التوازن» إلى نفسية المصريين ، خاصة بعد ظهور «تمرد» التونسية ، كأحد بنات أفكار الحراك الاحتجاجى باللهجة السياسية المصرية .

كان أهم سؤال حيّر كل متابعى ثورة يناير ، كيف لثورة بهذا الزخم وهذا الشكل أن تُسقط نظاماً عتيداً ، كنظام مبارك ، دون أن تملك هى من الأساس رأساً ؟ فى بلد اعتاد على المركزية ، والزعامة فيه جزء أصيل من تاريخه ، فى بلد تشكّل تاريخه حول رأس وحول نواة ؛ فالوادى فى قلب فلاة ، والقاهرة رأس لجسم ضخم . الحاكم الفرد الأوتوقراطى رأس لهيكل بيروقراطى عتيد ، كان لزاماً وبناءً على كل هذا التراث، أن ترنو الأبصار عقب ثورة يناير إلى الرأس التى كانت تُحرك . وكم كانت الصدمة عميقة لدى الكثير . رغم جماعية القيادة ، أو قل شعبيتها ، كان من أسباب ثورة يناير ، فكأنما كان النظام يتعاطى مع الشعب بأكمله . لذا ، كان اندغام الرأس فى الجسد المصرى الضخم من ملامح الإبهار فى بنية الثورة . لكن رغم ذلك ، كانت التداعيات السلبية هى التى حكمت وتحكمت فى تلابيب المشهد بعد ذلك . وعندما وصلنا إلى ٣٠ يونية ، كانت الإرادة الثورية للمجموع تدخل فى طور النضوج . فقد عدنا إلى القاعدة ؛ إن الزعيم هو القائد والرأس للحراك الثورى فى صيرورته المنطقية. وعدنا إلى ما ألفه المصريون : منطق «الرجل القوى» ، أو «الزعيم المخلِّص» القادر على الحسم الثورى . فكانت ثورة الأربعة أيام .

وختاماً ، عندما يعجز النظام الحاكم القادم بالصندوق الانتخابى عن استيعاب أحلام وآمال الجماهير ؛ فإن تساؤلاً عميقاً يُطرح حول جدارة العملية الديمقراطية كلها كآلية «مناسبة» للتغيير السلمى. وتُجيب الجماهير على ذاتها فى الحالة المصرية؛ باختراع مفاهيم جديدة للثورة والديمقراطية والشرعية والانقلاب . ومن ثم ، يغدو ٣٠ يونية ، انتقالاً معرفياً جديداً على مستويات علم الثورة . وهنا ، تبدأ الحكاية لا تنتهى بـ ٣٠ يونية ٢٠١٣ .

تأملات فى ذكرى مرور ١١٠ عاماً على ميلاد آرام خاتشادوريان

إعداد : هرانت كشيشيان

يمر هذا العام ١١٠ عاماً على ميلاد أحد أهم المؤلفين الموسيقيين فى القرن العشرين ، وهو آرام خاتشادوريان (١٩٠٣ ـ ١٩٧٨) Aram Khachadurian ، الذى يمثل مع كل من سيرجى پروكوفييف (١٨٩١ ـ ١٩٥٣) Sergey Prokofiev وديمترى شوستاكوفيتش (١٩٠٦ ـ ١٩٧٥) Dimitry Shostakovich الثالوث الأعظم للمدرسة الموسيقية السوفيتية .

ولقد حدث التغيير الجذرى بعد وفاة ستالين المتشدِّد (لأسباب مبررة وغير مبررة) فى ٥ مارس ١٩٥٣ ، حيث أصبح ابن عامل المنجم البسيط نيكيتا خروشوف (١٨٩٤ ـ ١٩٨١) هو زعيم الاتحاد السوفيتى (وهل يُمكن لأى شخص من طبقة كادحة بسيطة أن يُصبح رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية الديمقراطية؟) .

ومنذ عام ١٩٥٦ حدثت التغييرات التحررية والإصلاحية فى المجتمع السوفيتى ودخلت الثقافة السوفيتية فى مرحلة جديدة من تطورها . وحدث انفتاح على العالم الخارجى ، إذ بدأت الأفواج السياحية السوفيتية تزور البلدان المختلفة ، كذلك بدأ الفنانون الكبار والفرق الفنية الكبيرة تزور بلاد العالم لتقديم عروضها أمام الشعوب المختلفة التى انبهرت بالفنون السوفيتية الأدائية بوجه خاص .

وفى هذه الأجواء ، عاش وأبدع فناننا الكبير آرام خاتشادوريان . فلقد أنتج عدة روائع بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية منها كونشرتو التشيللو والأوركسترا (١٩٤٦) ثم سيمفونيته الثالثة (١٩٤٧) التى أثارت الجدل بين النقاد وقت ظهورها لاحتوائها على بعض التقنيات غير التقليدية . وبالإضافة إلى هذين العملين ، ألّف خاتشادوريان موسيقى ممتازة لعدة أفلام مهمة جداً سأذكر منها الفيلم الكبير «معركة ستالينجراد» (١٩٤٩) .

إن الموسيقى المصاحبة لأحداث هذا الفيلم قوية جداً وُتعبر بعمق وصدق عن ضخامة وهول الأحداث التى يتحدث عنها . وأتذكر بأننى عندما شاهدته منذ حوالى عشرة سنوات اهتز كيانى بشدة وانهمرت الدموع من عينى بغزارة لأنه كان يُعبر عن مأساة الشعب السوفيتى الذى فقد مئات الآلاف من المدنيين والعسكريين فى معركة ستالينجراد . فمناظر المدينة التى تحولت إلى مدينة أشباح نتيجة للقصف الجوى والأرضى النازى كانت قاسية جداً ، وأنت تتخيل جثث الآلاف والآلاف من البشر الأبرياء تحت تلك الأنقاض . وعلى الرغم

من ذلك ، قاوم السكان وفرق الجيش الأحمر التى كانت أعدادها ضئيلة بالنسبة لأعداد الجيش النازى المهاجم فى البداية . فقاموا بالدفاع عن كل متر مربع من مدينتهم ببسالة لا يُمكن وصفها . وبالتالى كان تقدم النازيين بطيئاً جداً إلى أن وصلت الفرق الإضافية للجيش الأحمر من كل اتجاه ، حيث حاصرت القوات النازية تماماً ، فضغطت عليها متمكنة أخيراً من القضاء عليها عن آخرها .

ولقد خسر الألمان فى هذه المعركة التى دامت ٢٠٠ يوماً ربع قواتهم التى هاجمت الاتحاد السوڤيتى ؛ أى مليون ونصف مليون جندى وضابط ، وألفىّ دبابة وثلاثة آلاف طائرة وعشرة آلاف مدفع . وهل يتصور القارئ مثل هذه الخسائر فى معركة واحدة فقط فى أية حرب من الحروب ؟!

ولقد عبّر خاتشادوريان بإتقان تام عن مشاهد مأساة وأيضاً بطولة الشعب السوڤيتى فى هذا الفيلم . وعلى العموم يُمكننا اعتبار الموسيقى التى ألّفها لعشرة أفلام سوڤيتية ممتازة ، هى مجموعة أعمال مستقلة فى حد ذاتها تُمثل نماذج رائعة للتأليف الموسيقى الرفيع الذى يخدم فناً من الفنون المركبة ، وأعنى بذلك الفن السينمائى .

وبهذه المناسبة ، سأذكر بأن خاتشادوريان ألّف الموسيقى الوصفية للفيلم المصرى ـ السوڤيتى المشترك الوحيد وهو فيلم «الناس والنيل» من إخراج يوسف شاهين فى عام ١٩٧١ . ولا يُعد هذا الفيلم من أهم أفلام السينما المصرية أو من أروع أفلام ذلك المخرج العبقرى ، لكنه فيلم جيد يُوثق جزئياً لأحد أهم منجزات مصر فى العصر الحديث وهو بناء السد العالى .

سأضيف أيضاً بأنه كانت هناك عدة أفلام مصرية قبل فيلم «الناس والنيل» استُخدمت فيها مقتطفات من موسيقى خاتشادوريان ذات الطبيعة الشجنية المؤثرة ، ربما أهمها هو فيلم «أيامنا الحلوة» ، إخراج حلمى حليم (١٩٥٥) .

* * *

فى المرحلة التالية ، أعنى فى العصر الخروشوفى ، أبدع خاتشادوريان أحد أروع أعماله على الإطلاق وهو الباليه الكبير «سپارتاكوس» الذى قام بتأليفه خلال أعوام ١٩٥٠ ـ ١٩٥٤ . وهذا الباليه الذى هو عن أول تمرد جماعى كبير للعبيد فى العالم القديم ، عُرض لأول مرة وبنجاح ساحق فى مدينة لينينجراد (سان بطرسبورج الآن) ، وذلك فى ٢٦ ديسمبر ١٩٥٦ . ويُعد هذا الباليه مع «جايانيه» من أهم الباليهات التى أُلفت على الإطلاق ، أسوة بباليهات تشايكوڤسكى وستراڤنسكى وپروكوفييف .

وبعد ذلك نجده يُؤلِّف آخر ثلاثة أعمال كبيرة له ، وذلك فى ستينيات القرن الماضى . وهى كونشرتو ـ راپسوديا للكمان والأوركسترا (١٩٦١) ، وكونشرتو ـ راپسوديا للتشيللو والأوركسترا (١٩٦٣) ، ثم كونشرتو راپسوديا للبيانو والأوركسترا (١٩٦٨) .

ومع الأسف لم تُتح إلى اليوم فرصة الاستماع إلى هذه الأعمال ذات البناء المركب من قالب الكونشرتو الكلاسيكى وقالب الراپسوديا الارتجالى الحر ، والتى تُشكل معاً ثلاثية مترابطة . ولذلك لا يُمكننى الحديث عنها فى هذا المقال .

على العموم كانت هذه الأعمال الثلاثة هى كل ما ألّفه خاتشادوريان من أعمال كبيرة مهمة بعد باليه «سپارتاكوس» وحتى نهاية حياته فى عام ١٩٧٨ ، أى خلال فترة ربع قرن تقريباً . وهنا سيتساءل القارئ عن سبب ذلك ! وبالطبع هناك عدة أسباب أعتقد أن أهمها

هو تكوين شخصيته بطبيعتها الانفتاحية .

لقد كان خاتشادوريان إنساناً اجتماعياً من الدرجة الأولى ، يحب التواصل مع الناس جميعاً والاستماع إلى مدحهم وتقديرهم لإنجازاته . وكان يحب التمتع بجميع متع وملذات الحياة (بالطبع دون الانغماس فى الملذات المدمِّرة كإدمان المخدرات مثلاً) . فلم يكن إنساناً يُفضِّل الانعزال مثل زميله العبقرى شوستاكوفيتش الذى فضّل التركيز المستمر على عمله الإبداعى . والنتيجة هى العدد الكبير من الأعمال الرائعة التى ألّفها خلال ربع القرن الأخير من حياته ، وذلك على العكس من خاتشادوريان .

وفى إطار أنشطته الاجتماعية العديدة قبل فى عام ١٩٥٠ كرسى الأستاذية فى التأليف الموسيقى فى كل من معهد جنيسين للموسيقى وكونسرڤاتوار موسكو .

لكن أكبر مجهود بذله فى هذه المرحلة الأخيرة من حياته هو أنه بدءاً من عام ١٩٥٠ ، مارس قيادة الأوركسترا ، فقدّم مختارات من أعماله فى المدن المختلفة للاتحاد السوڤيتى وكذلك فى أكثر من ٣٠ بلداً من بلاد العالم المتحضر .

وفى هذا السياق زار مع زوجته نينا ماكاروڤا Nina Makarova فى الفترة من ١٦ أبريل ١٩٦١ إلى ٢٧ مايو ١٩٦١ كلاً من مصر ولبنان ليُقدم ١١ حفلة سيمفونية ، برامجها كانت مكوّنة من مختارات من روائع أعماله (خمس حفلات قدّمها بالقاهرة ، وحفلتان بالإسكندرية ، وأربع حفلات فى بيروت) .

* * *

اليوم ونحن فى عام ٢٠١٣ ، فبعد مرور ٣٥ عاماً على وفاة خاتشادوريان سنجد أن أروع أعماله أصبحت ضمن التراث الموسيقى للبشرية جمعاء . ويُمكننا أن نتساءل الآن ، عما كانت تلك المقومات التى أنتجت عبقرية هذا الموسيقى الكبير !

كما ذكرنا سابقاً فإن العبقرية لا تُولد جاهزة مع الإنسان ، بل هى تُصنع خلال الحياة نفسها شريطة أن تتوافر الظروف المواتية لذلك . وهذه الظروف المواتية منها ذاتية الطابع ومنها الموضوعية .

من الناحية الذاتية ، يجب أن يكون الفرد أولاً مولود بعوامل چينية مناسبة لإنجاز شئ مهم فى الحياة ، كالموهبة الموسيقية الكبيرة . ومن جهة أخرى ، يجب أن تتأسس لديه شخصية مناسبة لإنجاز أصعب المهام . وهكذا ، سنجد أن خاتشادوريان كان يتمتع بموهبة طبيعية (فطرية) كبيرة ، علاوة على الذكاء الحاد وشخصية انفتاحية مرحة ، محبة للحياة وللعمل الشاق ، علاوة على امتلاك الإرادة الحديدية .

أما من الناحية الموضوعية ، فقد كان محظوظاً أنه وُجد فى مجتمع بطولى ، يتميز بروح التفاؤل وحب العمل وبالنظام . وسنجد أنه عاش فى دولة كانت تُعطى أهمية كبرى لنشر الفنون المختلفة كلها ، سواء الإبداعية أو الأدائية ، وسواء الشعبية أو الرفيعة .

لقد كانت الدولة السوڤيتية قد أسست تدريجياً شبكة ضخمة من المؤسسات الخاصة بالتعليم الموسيقى ، تتضمن حوالى ٧٠٠٠ مدرسة موسيقية لتعليم الصغار ، وأكثر من ٢٠٠ معهداً متوسطاً لتعليم الموسيقى والفنون ، و٤٨ كلية موسيقية فى إطار معاهد التربية ، و٢٠ كونسرڤاتواراً على رأسها المتواجدان فى كل من لينينجراد وموسكو ، حيث حصّل خاتشادوريان تعليماً موسيقياً رفيعاً فى هذا الأخير (هذه المعلومات مأخوذة عن دائرة المعارف الأرمنية السوڤيتية ، المجلد العاشر ، ص ٧٠٠) .

وكانت الدولة تمتلك أيضاً شبكة واسعة جداً من

المؤسسات التى تقوم بتقديم كل أنواع الأعمال الموسيقية للشعب ، بما فى ذلك الإبداعات المعاصرة . وكانت هذه الشبكة تتضمن فى عام ١٩٨١ عدد ٤٤ داراً للأوبرا والباليه ، ٣٣ مسرحاً لتقديم الكوميديا الموسيقية ، ١٤٥ قاعة فيلهارمونيا لتقديم الأعمال الموسيقية المختلفة ، ٤٤ أوركسترا سيمفونى ، ٦١ فرقة لعزف موسيقى الحجرة ؛ أى تلك الموسيقى التى تعزفها المجموعات الصغيرة (عن نفس المرجع السابق) . وهل يُمكن مقارنة هذه الأرقام بما يُقابلها فى أية دولة رأسمالية متقدمة ، حيث نجد فيها أن التعليم الموسيقى يحتاج إلى أموال طائلة ؟ .

علاوة على المذكور أعلاه ، فإنه كانت هناك شبكة واسعة من دور النشر الموسيقى لها فروع فى كل الجمهوريات الـ ١٥ . ولقد نشرت دار النشر الرئيسية فى موسكو بين عامىّ ١٩٨٢ و١٩٩١ المدونات الموسيقية للأعمال الكاملة لخاتشادوريان ، وذلك فى ٢٤ مجلداً كبيراً . وهذا ربما كان من أواخر المنجزات الثقافية الرائعة التى تحققت فى الاتحاد السوڤيتى قبل تفككه . وبعد ذلك وإلى اليوم لم تتحقق أية إنجازات ثقافية على المستوى العالمى ، لاسيما فى تلك الجمهوريات الصغيرة التى أصبحت الآن من العالم الرابع !

* * *

وأخيراً بقيت لدىّ نقطتان أتحدث عنهما فى هذا المقال التأملى ، وهما مسألة جذور ومصادر موسيقى خاتشادوريان ، ثم ثانياً قضية تقييم وتقدير أعماله فى العالم الغربى .

فالجذور العميقة لموسيقى خاتشادوريان تعود إلى الشعراء الموسيقيين الشعبيين المعروفين بأرمينية القديمة والوسيطة بإسم الجوسان Gusan ، وصولاً إلى تراث الشاعر الموسيقى الشعبى صايات نوڤا ، الذى كتبتُ عنه من قبل مقالاً تعريفياً نُشر فى هذه المجلة (أنظر عدد ديسمبر ٢٠١٢) .

أما مصادرها فهى من جهة التراث الموسيقى الغزير للشعب الأرمنى بأفرعه المتعددة ، ولاسيما التراث الفولكلورى الذى درسه وعالجه بإتقان جوميداس Gomidas (١٨٦٩ ـ ١٩٣٥) ، ثم التراث الموسيقى الكلاسيكى الذى وصل إلى مستويات لا بأس بها لاسيما فى أعمال ألكسندر سپندياريان (١٨٧١ ـ ١٩٢٨) Alexander Spendiarian ، السلف المباشر لخاتشادوريان . ولقد استفاد أيضاً من تراث شعوب منطقة ما وراء القوقاز .

كذلك كانت المدرسة الموسيقية الروسية الكبيرة جداً متمثلة فى مؤلفين موسيقيين أمثال تشايكوڤسكى ورمسكى كورساكوف وبورودين ورخمانينوف ، وأيضاً المدارس الأوربية الغربية ولاسيما المدرسة الفرنسية التأثيرية متمثلة فى موريس راڤيل من المصادر الرئيسية لفنه . ولقد تفاعلت هذه المصادر لديه وتبلورت فى أسلوب موسيقى هو «سبيكة موسيقية خاتشادوريانية» ، يُمكننا تمييزها دائماً بعد استماعنا إليها بلحظات قليلة (وهذا الرأى الأخير هو رأى زميله وصديقه العبقرى ديمترى شوستاكوڤتش) .

أما تقييم وتقدير تراثه الموسيقى من قبل النقاد الغربيين ، فقد كان إيجابياً أحياناً وسلبياً فى أحايين أخرى . فهناك عدة اعتبارات تداخلت فى ذلك التقييم الذى اختلف من ناقد إلى آخر . وبالطبع أهمها كان تأثير الحرب الباردة التى اختلقها الغربيون عمداً لمحاربة الاشتراكية ، وهذا أثر بدوره على الآراء غير الموضوعية لبعض النقاد . فبالنسبة لهم كان لا يُمكن أن يأتى فناً عظيماً وقيِّماً (بل متفوقاً فى بعض الحالات على الفنون الغربية) من دولة اشتراكية ، يعتبرونها غير ديمقراطية . وذلك بالطبع فى عقلية الديمقراطية الغربية التى هى

«مبرمجة» فى النهاية لخدمة طبقة رئيسية واحدة ، هى طبقة الرأسماليين بكل فئاتها وحاشيتها .

من ناحية ثانية ، اكتشف النقاد (داخلياً وخارجياً) بعض العيوب التقنية ، فى عدد قليل من أعمال خاتشادوريان ، منها التضخيم المبالغ للرنين النغمى الكلى فى السيمفونية الثالثة مثلاً . وأحياناً اكتشفوا عدم التوازن البنائى فى بعض الأعمال .

وهل هناك فناناً ، حتى أعظم العباقرة منهم ، ليست لديهم نقاط ضعف قد تظهر فى عدد قليل من أعمالهم؟ . فبيتهوفن العظيم نفسه مثلاً ، ألّف فى عام ١٨١٣ عملاً سيمفونياً برنامجياً مجلجلاً بعنوان معركة ڤتوريا The Battle of Vittoria ، وهو مصنف رقم ٩١ فى كتالوج أعماله . والعمل من نوع الموسيقى البرنامجية لأنه ليس موسيقى مجردة بل هو عمل مؤلف حسب برنامج صفى معين يحكى أحداث تلك الحرب . ولقد مرّ للآن قرنان على تأليف هذا العمل الذى هو بإجماع الآراء أضعف أعمال بيتهوفن ، بل إن شهرته قائمة فى تاريخ الموسيقى على أساس أنه أضعف أعمال ذلك العبقرى الكبير !

وهكذا ، فإنه بالنسبة لخاتشادوريان (وبالنسبة لأى فنان كبير آخر) لا يجب أن يكون القياس التقييمى على أساس عملين أو ثلاثة أعمال من إنتاجه ، بل يجب أن يكون ذلك على أساس المحصلة الكلية لمجموع أعماله . فهذا المؤلف الموسيقى هو تاريخياً أول مؤلف للموسيقى الرفيعة وُلد فى آسيا وتمكن من دخول سجل تاريخ الموسيقى من أوسع الأبواب .

وختاماً ، وبعد أن قدّمتُ تحليلاً سريعاً للظروف التاريخية التى أدت لظهور عبقرية خاتشادوريان ، سأقدم نصيحة بسيطة لمحبى الموسيقى من قراء هذا المقال : حاولوا الاستماع إلى موسيقى آرام خاتشادوريان للاستمتاع بها فى حياتكم ، لاسيما موسيقى باليه «جايانيه» وكونشرتو البيانو والأوركسترا وأيضاً كونشرتو الكمان والأوركسترا ، فهى موسيقى قريبة جداً من ذوق المستمع الشرق أوسطى بوجه خاص ، علاوة على أنها من النوع الذى يسهل هضمه سمعياً ، لأنه يتميز بما يُسمى بالاستحواذ المباشر direct appeal على عقل وروح الإنسان .

إصـــدارات

تشريعات الطفولة والأحداث فى مصر ١٨٨٣ ـ ١٩٧٤

عن دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ـ مركز تاريخ مصر المعاصر ، صدر مؤخراً أحدث أعمالها وهو بعنوان «تشريعات الطفولة والأحداث فى مصر ١٨٨٣ ـ ١٩٧٤» من إعداد الباحثة د . سحر حسن أحمد على ، إشراف ودراسة : د . محمد رفعت الإمام أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بآداب دمنهور . ويُعد الكتاب الأول من نوعه ؛ إذ أنه جمع كل التشريعات التى أصدرتها الحكومة المصرية بخصوص مشاكل وقضايا الأطفال والأحداث . ويُعد مصدراً ثرياً لمعالجة قضايا الأطفال والأحداث التى ظلت تتفاقم حتى أصبحت الآن من معضلات الآمن الاجتماعى المصرى .

دراسات

الأرمن فى إسطنبول
١٨٣٩ ـ ١٨٧٨

عرض : على ثابت

إعداد : آلاء فهيم

بتقدير «مرضى» حصلت الباحثة آلاء فهيم أحمد فهيم فى ١ يولية ٢٠١٣ ، على درجة الماجستير ـ نظام الساعات المعتمدة ـ من قسم التاريخ ـ فرع التاريخ الحديث والمعاصر ـ بكلية الآداب جامعة الإسكندرية عن أطروحتها «الأرمن فى إسطنبول ١٨٣٩ ـ ١٨٧٨» تحت إشراف أ . د . محمد محمود السروجى أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر جامعة الإسكندرية و د . محمد رفعت الإمام أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد جامعة دمنهور . وقد تشكلت لجنة المناقشة والحكم علي الرسالة من أ . د . فاروق عثمان أباظة أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر جامعة الإسكندرية مناقشاً ، أ . د . صلاح أحمد هريدى أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر جامعة دمنهور مناقشاً .

وقد وقعت الرسالة فى ١٦٣ صفحة ، مقسمة إلى أربعة فصول تسبقها تمهيد وتُنهيها خاتمة . هذا ، وقد جاء الفصل الأول بعنوان : الهيكل الأرمنى فى إسطنبول ، والفصل الثانى : النشاط الاقتصادى للأرمن فى إسطنبول ، والفصل الثالث : النشاط الثقافى للأرمن فى إسطنبول ، والفصل الرابع : المجتمع الأرمنى فى إسطنبول . وفيما يلى أبرز نتائج الدراسة وهيكلها العام :

يُعد الشعب الأرمنى من الشعوب ذوات التاريخ العريق ، حيث يضرب بجذوره فى عمق التاريخ الإنسانى ، كما مثلت الحضارة الأرمنية واحدة من حضارات العالم القديم ، وامتدت حدود الإمبراطورية فى ذروتها (٩٥ ـ ٥٥ ق . م) من شواطئ البحر الأسود إلى شواطئ بحر قزوين والبحر المتوسط . وينتمى الأرمن لغوياً إلى المجموعة الهندو ـ أوربية ، وقد ثبت وجودهم فى حوالى عام ٢٧٠٠ ق . م . وقد لعب الموقع الجغرافى لمملكة أرمينية دوراً محورياً ، حيث جعل أراضيها مسرحاً لصراع الإمبراطوريات الكبرى وعلى رأسها الدولة العثمانية وروسيا القيصرية وفارس . وكانت المحصلة النهائية لهذا الصراع تقسيم أرمينية إلى ما عُرف بأرمينية العثمانية وأرمينية الروسية . بيد أن الجزء الأكبر من أرمينية القديمة وقع فى الفضاء العثمانى .

ونتيجة لتفاعل الأرمن داخل المجتمع العثمانى ، فقد انخرطوا فى الهيكل الإدارى العثمانى ، وصاروا لاسيما فى إسطنبول عموداً فقرياً للنظام الاقتصادى العثمانى على شتى أصعدته الزراعية والصناعية

والتجارية والحرفية . أضف إلى ما سبق تواجدهم الفعّال فى الهيكل العثمانى الوظيفى ، فتقلدوا أعلى المناصب فى الدولة العثمانية بسبب استعدادهم لخدمة الدولة وذكائهم وجديتهم وافتقارهم إلى طموحات الاستقلال . كذلك أشارت الإحصائيات إلى وجود كبار موظفين أرمن فى الحكومات العثمانية لدرجة أنهم وصلوا إلى ما يقرب من ٢٢ وزيراً عملوا فى الخارجية والمالية والأشغال العثمانية .

وهكذا ، أضحت إسطنبول مركزاً اقتصادياً وثقافياً وسياسياً للأرمن الذين نعموا برعاية السلاطين العثمانيين ونالوا مساعدتهم حتى غدوا من أرقى العناصر فى الدولة العثمانية . كما كان الأرمن من أشد الشعوب المسيحية فى الدولة العثمانية إخلاصاً فى خدمتها وآخر من فكر فى التحول عن الولاء لها لدرجة أن العثمانيين أطلقوا عليهم لقب (الملة الصادقة) .

وعندما انهارت بنية الدولة العثمانية الإدارية والعسكرية والمالية تحت وطأة الفساد الداخلى والتحديات الخارجية إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، تعالت أصوات المتنوِّرين فى الدولة العثمانية منادية بأن استمرار دولتهم منوط بالإصلاح ، مما تمخض عنه ما عُرف بـ «التنظيمات» (١٨٣٩ - ١٨٧٦) . ورغم أن الإصلاح كان مرهوناً بتطبيق ما أفرزه عصر التنظيمات ، فإن الدستور العثمانى ١٨٧٦ كان وحده كفيلاً بإنقاذ الدولة نظراً لإرسائه مبدأ (العثمنة) الذى جعل كل عناصر الدولة متساوية . بيد أن تعطيله من قبل السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ - ١٩٠٩) ، قد ضرب مشروع الإصلاح فى الصميم . على أية حال ، لم يكن هذا حال جميع الأرمن فى الدولة العثمانية ، إنما كان هذا حال أرمن المدن العثمانية الكبرى وعلى رأسها إسطنبول قيد الدراسة .

لقد ساعدت هذه التنظيمات الأرمن العثمانيين خاصة أرمن إسطنبول على أن يكونوا أكثر تقدماً وتحرراً حتى أنهم تفوقوا على نظرائهم الروس . إذ أن عائلات أرمنية نشأت وترعرعت فى إسطنبول ، كان لها دور بارز فى العديد من أمور الدولة مثل عائلات داديان وباليان ودوزيان ، بالإضافة إلى أنهم أسهموا فى تطور المجتمع الأرمنى . كما انبثقت عن الطبقة الأرستقراطية الأرمنية شريحة عُرفت بإسم «الأمراء الأرمن» ، وهى الشريحة الغنية التى سكنت إسطنبول ، وكان منهم رجال البنوك والتجار وموظفو الحكومة . وقد أسست هذه الشريحة المدارس ودور الطباعة والمكتبات ، كما ساعدوا فى إرسال شباب من طلاب الأرمن إلى المدارس الأوربية من أجل التعليم العالى أو التدريب المهنى .

لقد كانت الخمسون عاماً الممتدة بين عامىّ ١٨٣٠ و١٨٨٠ بالنسبة للأرمن العثمانيين عامة وأرمن إسطنبول خاصة ، ذات مغزى عميق ، حيث كانت بمثابة فاتحة عصر جديد فى النهضة الفكرية والأدبية والفنية والاجتماعية ، بحيث جعلت من الأرمن أمة حديثة منفتحة على التيارات الثقافية الكبرى والنشاطات الفكرية العالمية . والحق أنه خلال هذه الحقبة ، شرع الأدب الأرمنى الحديث يتطور فى إسطنبول وفى الولايات العثمانية الأخرى . بيد أن إسطنبول كانت المركز لهذا الإشعاع الثقافى ، وذلك تحت تأثير الأدباء الأرمن من أمثال : أبوڤيان ، راڤى ، بارونيان ، آليشان وغيرهم .

أما عن دور الأرمن فى الحياة الاقتصادية العثمانية ، فقد كان التجار الأرمن من أكبر التجار الموجودين فى إسطنبول ، حيث كانوا على معرفة كبيرة بالقصر ، وقد عُرفوا بـ «بازرچان باشى» قبل عام ١٦٤٠ ، وهذا

اللقب التركى يعنى باللغة العربية «رئيس التجار» ، حيث أنهم عملوا على إمداد القصر بكل ما يحتاج إليه من مؤن ، مثل احتياجاته من الكوخا (الجوخ) والبيز (مادة قطنية) والتولبنت (الموسلين) وغيرها من المواد التى كان يحتاجها القصر ، كما كان هناك من الأمراء الأرمن من عمل بالتجارة عموماً .

وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، تقلّد بعض أبرز الأمراء الأرمن منصب «بازرچان باشى» والذى كان يحتاج إلى ثروة كبيرة . فعلى سبيل المثال : فى عام ١٦٤٤ ، صاحب (أبراهام) الجيش العثمانى أثناء الهجوم على جزيرة كريت ، وكان هذا الأمير الأرمنى غنياً لدرجة أنه كان بإمكانه شراء بضائع قافلة من الشرق أو حمولة سفينة بأكملها من أوربا ويدفع ثمنها على الفور .

أما فى الفترة ما بين ١٧٨٠ ـ ١٧٩٠ ، فقد سيطر أسطول «جرابيد أميرا مانوجيان» على عملية التسويق بين أسطول الدولة العثمانية وروسيا ، مما أمكنه أن يجمع ثروة ضخمة ، ومن قبل تلك الفترة بحوالى ثلاثين عاماً ، أى فى عام ١٧٥٠ أُثرى «هوڤسيب شلبى بازرچان» باحتكار استيراد الساعات من إنجلترا ، وباحتكار بيعها فى كل أنحاء الدولة العثمانية . وفى القرن التاسع عشر ، كان هناك عدد ملحوظ من الأمراء الأرمن الذين عملوا «بازرچان باشى» .

ووصلاً لهذا الدور ، قام الأرمن بدور كبير فى الحرف والتجارة ، فعلى الرغم من أن صناعة الأحذية والبناء والخبيز كانت فى أيدى الأروام بشكل رئيسى ، فإن الأرمن قد عملوا فيها أيضاً . أما بقية الحرف الأخرى ، فقد كانت فى أيدى الأرمن من قبيل الصاغة والميكانيكيين ورسامى التصميمات الرفيعة وعليها «عرق اللؤلؤ» والنقاشين ، كما كانت تجارة الذهب فى إسطنبول بأكملها فى أيدى الأرمن من سكان حى «سماتيا» . ومن المثير للدهشة أن المعلمين من الحرفيين الأرمن (الأسطوات) لم يعتادوا أن يحتفظوا بصبية غير أرمن تحت التمرين لكى يُعلموهم . كما مارس الأرمن حرفة التطريز بالخيط الذهبى على القطيفة ، والذى انتشر بشكل واسع فى إسطنبول ، إلا إنه كان حكراً على النساء الأرمنيات الفقيرات فقط ، إذ كان وسيلتهن الرئيسية فى الرزق . وبإيجاز ، كانت أغلب التجارة فى إسطنبول فى أيدى الأرمن واليونانيين .

لقد كان الأرمن مشهورين بصياغة الحلى والمصوغات والمشغولات الذهبية ، وكان أبرزهم عائلة «دوزيان» والتى كانت واحدة من أهم العائلات الأرمنية فى إسطنبول ، وكانت مسئولة عن تصنيع المصوغات الذهبية ، وكان لديهم الكثير من احتياطى الذهب والفضة . كما أنشأ الأرمن عدداً من المتاجر عام ١٨٥٠ فى إسطنبول وأزمير وغيرها من المدن الساحلية والمدن الداخلية فى الدولة العثمانية ، بالإضافة إلى المتاجر التى أنشأوها خارج الأراضى العثمانية فى روسيا ومختلف الدول الأوربية ، مما أسهم فى تحسين الحالة الاقتصادية للأرمن فى القرن التاسع عشر . كذلك كانت الضرائب الجمركية التى يدفعها التجار الأرمن واحدة من أهم مصادر الدخل الكبيرة للخزينة العثمانية من القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر .

كانت الخدمات التى قدمها الأرمن فى ميادين الحرف والمهن نفيسة للغاية ، فقد أسس أرمنى يُسمى «آراكيل» مصنعاً للغزل فى منطقة أيوب بإسطنبول ، وذلك عقب عودته من ڤيينا حيث تعلم تركيب واستعمال آلات النسج ، كما صُنعت محابس مياه الطائرات النارية السلطانية على أيدى حرفى أرمنى من حى سماتيا ـ أحد أحياء إسطنبول ـ ويُسمى «نيجوغوص» ، كما اخترع

«كافاچيان» ناراً إغريقية جديدة لتُشعل البحر ، وعندما طالبته الدولة بالسر ، رفض كافاچيان أن يُعطيها إياه قائلاً : «بأنه إذا حدثت حرب بحرية ، فسوف يكون مستعداً شخصياً لتنفيذ سلاحه لخدمة الدولة العثمانية» ، إلا أن الدولة قامت بقتله بالسم . وهكذا فقد الاختراع مخترعه . وتُعد القزازة (تربية دودة القز) فناً أرمنياً تقريباً ، فمن روادها «ك. توركوميان» و«خورازيچيان» و «بيشدملچيان» ، وكان هؤلاء أطباء بارزين فى البلاط والجيش ، وكان «أزميرليان المبصارى» - أى المتخصص فى المبصارية - الأشهر فى إسطنبول . كما كانت المحاماة من المهن التى عمل بها الأرمن ، ومن قائمة المحامين الأرمن الذين اشتهروا فى إسطنبول فى القرن التاسع عشر وكانوا وكلاء فى العديد من القضايا أمثال «فرامشابوه مانوجيان» و«كريكور زوهراب» ، وفى عام ١٨٨٠ كان يُوجد فى إسطنبول ما يقرب من ٣٠٠ طبيب أرمنى وتقريباً نفس العدد من المحامين (وكلاء القضايا) .

وتوالت إسهامات العائلات الأرمنية فى المجال الصناعى فى إسطنبول والدولة العثمانية مثل «هاجوب شلبى دوزيان» والذى شيّد مصنعاً للورق فى أزمير ، وأسرة «كافاچيان» التى شيّدت وأدارت مصنعاً لبناء السفن وترميمها فى إسطنبول ، وأسرة «دوزيان» التى سيطرت على دار سك العملة . علاوة على هذا ، كان لدى أسرة «داديان» امتياز احتكارى فى المجهود التصنيعى للحكومة العثمانية .

كما تُعد عائلة ميناسيان واحدة من العائلات الأرمنية التى تميزت بفنها المتواجد فى إسطنبول منذ القرن الثالث عشر ، ومن أفراد هذه العائلة والذى برع فى فن الرسم وخصوصاً الصور المنمنمة نذكر : روبين ، سيبوه ، كاسبار . أما عن الصيارفة ، ففى نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر ، اتحد الصرافون الأرمن الناجحون فى الدولة العثمانية فى شركتين كبيرتين هما (شركة الأناضول - شركة الروميلى) . وكان الصرافون المؤثرون فى شركة الأناضول هم : (هاروتيون أميرا أبراهاميان - مجرديتش أميرا جزايرليان - بوغوص أميرا عاشقيان - بغداسار أميرا جزايرليان) ، بينما كانت سيطرة شركة الروميلى فى أيدى : (مقصود أميرا - أبراهام أميرا - چانيك أميرا - هاروتيون أميرا جيليجيليان - هوڤسيب أميرا تاڤديان) ، وكان رئيس هاتين الشركتين هو (هاروتيون أميرا جيليجيليان) ، والذى كان غالباً ما يطلب المشورة المالية من السلطان . وقد أقرضت هاتين الشركتين أموالاً للموظفين العثمانيين ذوى الرتب العالية لشراء الإقطاعيات فى الأناضول والروميلى . وبعد تجميع الضرائب المفروضة على السكان ، كانوا يقومون بدفع الأموال المطلوبة منهم للصرافين . كما أدار الصرافون الأرمن فى الأناضول تجارة المقايضة الأجنبية العثمانية ، علاوة على ذلك كثيراً ما أقرضوا أموالاً للتجار العثمانيين بفائدة سنوية تتروح فيما بين ٢٠ - ٢٥٪ .

وفى ميدان التعليم ، أدرك الأرمن منذ البداية أن التعليم هو السبيل الأمثل للحفاظ على الثقافة الأرمنية . فحتى أوائل الربع الأول من القرن التاسع عشر لم تكن توجد مدارس علمية أو أدبية فى إسطنبول أو أرمينية الغربية (العثمانية) ، إذ كانت المدارس فى الدولة العثمانية محصورة فى نطاق الكنائس والأديرة لدراسة كل ما يتصل بالدين من قراءة الإنجيل والمزامير وكتب الصلوات والأناشيد والأدعية الخشوعية والتى كانت من تأليف «كريكور ناريجاتسى» . وقد أسهم المخيتاريون فى حفظ الثقافة الأرمنية وإحياء دراسة التاريخ الأرمنى واللغة الأرمنية وفقهها ، فقد عملوا

على تنشيط العملية التعليمية من جديد للملة الأرمنية فى الدولة العثمانية ، حيث أخذ المخيتاريون يفتتحون المدارس فى عدة مراكز مهمة بالدولة .

وعلى خط متوازٍ ، تأسست المدارس الأرمنية الأولى فى إسطنبول منذ القرن الثامن عشر ، وإن لم يدم عملها طويلاً . ففى مستهل عام ١٧١٩ تأسست فى ضاحية إسكودار - أحد أحياء إسطنبول - أول مدرسة نظامية للأرمن على يدىّ «هوڤهانيس كولود» بطريرك إسطنبول فى ذلك الوقت ، والذى تولّى فيها التدريس بنفسه .

ومع بدايات القرن التاسع عشر ، انتشرت المدارس الأرمنية فى إسطنبول ، وقد ساعد ذلك على زيادة الفرص التعليمية للطلاب الأرمن من البنين والبنات من مختلف الطبقات الاجتماعية فى إسطنبول ، مما أبرز العديد من المواهب بين الطائفة الأرمنية ، كما أسهم فى خلق حياة نابضة بالروح الثقافية . وطبقاً لإحصاءات المدارس الأرمنية التى كانت موجودة فى إسطنبول ، بلغ العدد الحقيقى للمدارس الأرمنية فى إسطنبول ٤٠ مدرسة ، يضمون حوالى ٥٤١٩ تلميذاً (٣٠٦٠ من البنين و٢٣٥٩ من البنات) ومن مجموع الـ ٥٤١٩ تلميذاً كان هناك ١٧٧٧ تلميذاً بالمجان . وقد توزع الطلاب على المدارس الأرمنية بإسطنبول كالآتى : مدرسة واحدة تضم «٦١٦» تلميذاً ، وأربعة مدارس تضم من «٣٠٠» إلى «٤٠٠» تلميذاً ، وسبعة مدارس تضم «٢٠٠» إلى «٣٠٠» تلميذاً ، وتسعة مدارس تضم من «١٠٠» إلى «٢٠٠» تلميذاً ، وخمس مدارس تضم من «٥٠» إلى «١٠٠» تلميذاً ، و ١٦ مدرسة تضم من «٣» إلى «٥٠» تلميذاً . وقد قام بالتدريس فى الـ ٤٠ مدرسة «٣٠٧» معلماً ، ذكوراً وإناثاً منهم (١٩٦ مدرساً و١١١ مدرِّسة) . أيضاً كان للأرمن دور فى إدارة المدارس السلطانية ، فقد أداروا بشكل واسع المدرسة الطبية السلطانية نذكر من المدرسين القائمين عليها : (نيجوغوص ، روزينيان ، خانتاميان ، أنترانيج بك چرچيكيان ، إسطفان باشا أصلانيان . . . وغيرهم) . هذا غير من عمل بالتدريس فى أكاديميات الدولة الأخرى ، ونذكر منهم : (برتقاليان باشا ، ترزيان ، هـ. يوسفيان ، ميهران كراكاش ، هاجوب بوياچيان) .

ونظراً لإدراك الأرمن لمدى ارتباط التعليم بالطباعة ، فبرعوا فيها ؛ مما تمخض عنه إنشاء أولى المطابع فى الدولة العثمانية وفى إسطنبول تحديداً ، ومنها المطبعة التى أنشأها «أبكار التوكادى» عام ١٥٦٥ فى البندقية ثم نقلها بعد عامين ، أى فى عام ١٥٦٧ ، إلى إسطنبول لتكون بذلك أول مطبعة أرمنية بالأراضى العثمانية . ولقد أصدرت هذه المطبعة أولى الكتب الأرمنية التى صدرت فى إسطنبول ، حيث كان أولها هو كتاب «بوكر چرا كانويتون» (النحو المبسط) ، وهو كتاب فى قواعد اللغة الأرمنية ويبتعد تماماً عن الخوض فى المسائل الدينية ، كما كان هذا الكتاب هو أحد سبعة كتب أرمنية صدرت ما بين عامىّ ١٥٦٧ - ١٥٦٩ .

كما كان لبيت «آل أرابيان» دور كبير فى مجال الطباعة ، فقد ظل بوغوص أرابيان (١٧٤٢ - ١٨٣٥) ٧٠ سنة على رأس مطبعة القصر ، إلى جانب أنه استحدث أنواعاً جديدة من الحروف الأرمنية ، وابتكر قوالب الحروف التركية ، وقام بصب الحروف الجورچية . ورغم أن المطبعة ظهرت بإسطنبول بدءاً من النصف الثانى من القرن السادس عشر ، فإن الكتابة الخطية ظلت على الساحة ؛ إذ لم تكن المطبعة تفى فى البداية بكل مقتضيات الأدب الأرمنى ، والذى كان فى قمة ازدهاره فى إسطنبول .

لعل من أهم الأسباب التى أدت إلى تحجيم النشاط الطباعى الأرمنى منذ بداية ظهوره فى الدولة العثمانية ، أن الدولة العثمانية كانت دولة الخلافة الإسلامية ، وكانت تنظر إلى النشاط العقيدى للأرمن المسيحيين بعين الريبة ، لذلك لم ينشط التفوق الطباعى الأرمنى إلا مع منتصف القرن التاسع عشر وعصر التنظيمات والإصلاحات العثمانية منذ بداية عام ١٨٣٩ .

فلم يأت منتصف القرن التاسع عشر إلا وكان للأرمن فى دولة الخلافة العديد من المطابع . ففى عام ١٨٤٥ كان للأرمن مطبعتان فى إسطنبول وثلاث مطابع فى أزمير ثم مالبث أن تزايدت أعداد هذه المطابع بمرور الوقت . ومن أشهر المطابع الأرمنية التى ظهرت فى إسطنبول خلال القرن التاسع عشر تلك المطبعة التى أنشأتها عائلة داديان وعُرفت بمؤسسة داديان إخوان .

أما عن الصحافة ، فقد أسس الأرمن بين عامىّ ١٨٤٠ و ١٨٦٦ أربعة عشرة دورية باللغة الأرمنية ، من أهمها : ماسيس (جبل آراراد) عام ١٨٤٩ والتى كان يرأس تحريرها جرابيد أوتوچيان وأصدر من بعدها جريدتين هما «أريڤيلك» و «بوزانطيون» . لقد هيمنت الدورية «ماسيس» على الحياة الفكرية فى إسطنبول سنوات طويلة ، كما عملت بالتعاقب على أمر إصلاح اللغة ، وقد قدمت خدمة جليلة للغة الأرمنية ، حيث نقدت واقترحت وأوجدت كلمات ومصطلحات وجملاً فى العلم والأدب والرياضيات والاجتماعيات والشعر ، دخلت كلها فيما بعد القاموس الأرمنى وأحرزت مكانتها . ويبقى ما قدمته «ماسيس» ظاهراً فى اللغة الأرمنية . وهذا الإصدار الدورى المسمى «بى Bee» ويُحررها هاروتيون سڤاچيان ، وصحيفة هايرينيك (الوطن) تحرير أربيار أربياريان (١٨٥١ - ١٩٠٨) ، والذى كان صحفياً كبيراً من الجيل الجديد من المثقفين الأرمن آنذاك من أمثال شانت ، وليڤون باشاليان ، وأرشاج تشوبانيان ، حتى عُدّت إسطنبول فى هذه الفترة مقراً لعدد من الدوريات الشهرية الأرمنية .

وعلى هذا النحو ، كانت الصحافة من أهم الأسباب التى ساعدت على ميلاد النهضة الثقافية والفكرية الأرمنية ، لاسيما أنها كانت الأداة الأولى التى استخدمها الطلبة الأرمن العائدون من بعثاتهم التعليمية فى مختلف دول أوربا كى يُساهموا فى تطور العقلية الأرمنية .

وفى إطار الفن ، لعبت إسطنبول دوراً محورياً فى انتعاش المسرح الأرمنى ، فقد اعتُبرت من أهم مراكز تطور المسرح الأرمنى فى التاريخ ، حيث أُجريت العروض المسرحية فى البداية داخل بيوت عائلات الأثرياء من الأرمن ، وكانت هذه الأعمال المسرحية غالباً ما تكون لراسين وڤولتير وموليير . ومن أولى هذه العروض تلك التى قدّمها «الأب بيجيشيان» (١٧٧٧ - ١٨٥٠) والذى جاء من البندقية إلى إسطنبول عام ١٨٠٨ وأنشأ هناك مدرسة للأرمن . وفى غضون عامين ، تخرّج طلاب فى هذه المدرسة المخيتارية ولعبوا أولى عروضهم المسرحية داخل حرم المدرسة ومن بعدها فى بيوت الأثرياء .

وقد بدأ بناء المسارح الأرمنية فعلياً فى الدولة العثمانية بعد صدور فرمان الإصلاح عام ١٨٣٩ . ومن أشهر الفرق المسرحية الأرمنية التى وُجدت فى إسطنبول حقبتذاك كانت فرقة (بنجيليان) ، والتى قدّمت عروضاً ناجحة فى أنحاء مختلفة مثل أوربا ومصر . وقد تكونت هذه الفرقة من ٣٦ ممثلاً وممثلة تحت إدارة «يغيازار ميليكيان» ، ومن أشهر أعضاء هذه الفرقة كان : (مارديروس ميناجيان - تاڤيد تريانتس - ميكائيل

تشبراسد ـ هاروتيون ألكسانيان ـ زابيل حكيميان ـ يرانوهى كراكاشيان . . . وغيرهم) .

أما عن الأعياد التى اعتادت الطائفة الأرمنية فى الدولة العثمانية الاحتفال بها فمنها عيد ميلاد السيد المسيح ، وقد جرت العادة على الاحتفال به فى السادس من يناير حسب التقويم الجريجورى للكنائس الشرقية ، وعيد انتقال السيدة مريم العذراء ، وهو من أقدم الأعياد المريمية فى الكنيسة الأرمنية . ويُعد من بين الأعياد الكبيرة الخمسة وهى : الميلاد والغطاس ، والفصح ، وتجلى الرب وعيد الصليب . والطقس الأرمنى لا يذكر انتقال العذراء مريم فحسب بل مجئ المسيح بانتقال أمه . ويوم الاثنين الذى يلى الأعياد السيدية الخمسة يُكرس لتذكار الموتى . ويأتى عيد المترجمين حيث يُخصص لاحياء ذكرى ابتكار الأبجدية الأرمنية واحتفاءً بكبار رجال الثقافة ورواد حركة الترجمة . إذ تقوم الكنيسة الأرمنية بالاحتفال بعيد المترجمين ، من منطلق أن الأرمن يُقدسون لغتهم وأبجديتهم ، ولذا ، فإن الترجمة لها مكانتها إلى درجة التقديس . وتُصنف الكنيسة الأرمنية رجال الترجمة ورواد الثقافة بنفس درجة القديسين ـ أى تمنحهم القداسة ، ولذلك أطلقوا على مبتكر الأبجدية والمترجم ميسروب ماشتوتس لقب «قديس» ، واعتبروا عيد المترجمين عيداً من الأعياد الرئيسية لديهم .

وختاماً وضح أن الأرمن قد لعبوا دوراً بارزاً فى المجتمع العثمانى فى إسطنبول بعيداً عما عاناه الأرمن فى الولايات العثمانية شرقى الأناضول . بيد أن اندلاع الصدام بين الأرمن المطالبين بالإصلاحات والإدارة العثمانية ، حوّل الأرمن من «ملة صادقة» إلى «متأمرين» ضد الدولة من المنظور العثمانى ، ولهذا طالت المذابح الحميدية ١٨٩٤ ـ ١٨٩٦ وعمليات التهجير القسرى لغالبية الأرمن .

أرمينـــة ولبنـــان

فى ٢٤ يولية ٢٠١٣ ، تقابل السيد أشود كوتشاريان سفير جمهورية أرمينية فى لبنان مع السيد فريج صابونچيان وزير الصناعة فى لبنان . وأثناء اللقاء ، أكدّ الجانبان ضرورة العمل على تطوير وتوسيع العلاقات التجارية والاقتصادية بين الطرفين . وقد تم الاتفاق المبدئى على إقامة مؤتمر أرمنى لبنانى لرجال الأعمال فى الخريف القادم بيريڤان . وقد أُبديت القناعة بأن هذا المؤتمر الذى من المحتمل أن يشترك فيه مستثمرون ومنتجون ورجال أعمال سوف يُسهم فى تدعيم وتطوير العلاقات المتبادلة بين البلدين الصديقين . ووصلاً لهذا ، أكد الجانبان على أهمية إنجاز تسيير رحلات شركة طيران الشرق الأوسط بيروت ـ يريڤان والعكس ، والتى يُمكن أن تُساعد أيضاً على تنمية السياحة والعلاقات التجارية والاقتصادية وتنشيط الزيارات المتبادلة بين ممثلى دوائر رجال الأعمال . وقد وعد صابونچيان القيام بدراسة تفصيلية لمشروعات الاستثمار التى قدّمها السفير كوتشاريان وقائمة المنتجات الأرمنية مما يُساعد فى مسألة اختيار أعضاء وفد رجال الأعمال اللبنانى . وخلال الاجتماع ، تطرق الجانبان إلى المسائل الداخلية فى لبنان ، وكذا ، الشئون الإقليمية علاوة على التعاون بين أرمينية والمهجر .

آفـــــــــاق

الأرمن فى رحلة جيمس بيلى فريزر

بقلم : على عفيفى على

جاء إلى الشرق، مع بداية القرن السادس عشر، عدد من الرحالة الغربيين، دفعتهم دوافع عدة، منها المعلن ومنها الخفى، منهم المغامرون، والمحترفون، ومن جاء بالصدفة. واستحوذ هؤلاء الرحالة على اهتمام كثير من المؤرخين، لما كتبوه عن المكان والزمان والناس، وعاداتهم، وطرق حياتهم، بصورة واضحة جلية تجعلنا وكأننا نعيش معهم فى زمانهم، لذلك فإن ما كتبه هؤلاء الرحالة يُعد بحق مصدراً للتاريخ الاجتماعى والاقتصادى، وتُشكل النتائج التى أسفرت عنها رحلاتهم فى مجملها مصدراً مهماً للمؤرخ. إذ تعدى الانجذاب إلى الشرق، مع بداية هذا القرن، مرحلة الدهشة والانبهار بالأشياء الغريبة ، والحلم الرومانسى، الذى أسهم فى تدعيم أسطورة الشرق. واختلاط الماضى بالحاضر فى خيالات القراء والرحالة الأوربيين ، وتبدل إلى محاولة اكتشاف جديدة للشرق القديم، وانطلقت الرغبة فى معرفة أدق عن الآخرين، ترقب وترصد، فيما يُمكن أن نُسميه «تحقيق عن الشرق»، وما بين روائع آيات الماضى ، وما نهض فى أحضان هذا التاريخ من إبداعات فكرية وحضارية، تكونت حصيلة ضخمة من معارف أوروبا عن الشرق.

أما عن جنسيات أولئك الرحالة ، فقد أشار جعفر خياط فى مقدمة ترجمته لرحلة فريزر، إلى تعدد جنسياتهم، ويُذكر أن من بين هؤلاء الرحالة الذين زاروا العراق يأتى الأرمن، فيقول: «أما أصحاب هذه الرحلات فهم بين برتغالى وفرنسى وهولندى وألمانى وإيطالى وإنجليزى وأرمنى وهندي، بالإضافة إلى أربعة من الأتراك، غير أن قسمًا كبيراً من أولئك هم من الإنجليز». ومن جملة السياح الإنجليز، أو الرحالة، صاحب هذه الرحلة المستر جيمس بيلى فريزر J. Baillie Fraser، الذى كتبها بجزأين وسمّاها «رحلات فى كردستان وبين النهرين Travels in Kurdistan & Mesopotamia» عام ١٨٤٠ .

إنه رجل مهنته الكتابة. وقد قام برحلته فى عام ١٨٣٤ ، فسافر من إسطنبول إلى إيران فى مهمة دبلوماسية، وقطع المسافة على ظهور الخيل، ثم تجول فيها حتى حط الرحال فى تبريز، وأخذ يكتب منها إلى زوجته رسائل متتالية فيها شئ غير يسير من التفصيل عن كل ما يرى فى طريقه أو يُفكر فيه. وتبدأ رحلته المطبوعة بالرسالة الأولى من تبريز، التى أرّخها فى ٤ أكتوبر ١٨٣٤ ، فيتطرق فى رسائله الخمس الأولى إلى

باحث دكتوراه
فى تاريخ العراق الحديث

وصف الحالة فى تبريز وكردستان الإيرانية ، وخاصة منطقة أردان . وبدءاً من رسالته الثالثة ، المؤرخة فى ١٧ أكتوبر ١٨٣٤ ، يتطرق إلى شئون راوندوز فى الأصقاع الشمالية من العراق . ولهذه الرسائل عدا ما فيها من طرافة أهمية تاريخية لأنها تجلو لنا كثيراً من مراحل التاريخ العراقى فى أواخر أيام داود باشا (١٨١٦ ـ ١٨٣١) آخر المماليك ، وأوائل العهد الجديد الذى دخلت فيه العراق ، بعد أن تعاونت الأقدار وجيوش السلطان فى القضاء على باشوات المماليك وعهدهم ، ووضعت حداً لاستقلالهم فى الحكم عن الباب العالى فى إسطنبول .

وتصف مؤامرات داود باشا والطاعون الكبير ، الذى أتى على ثلثىّ سكان بغداد فى أيامه ، والغرق والخراب اللذان حل بالبلاد أثر ذلك ، ثم تتطرق إلى استيلاء على رضا باشا على بغداد وقضائه على بقايا المماليك ، وطريقته فى الحكم مع سياسته العشائرية . وفى الرسائل معلومات مفيدة عن عشائر الجربا وعنزة وعقيل وزبيد ، واستفحال أمرها مع تهديدها لبغداد نفسها ، ووصف طريف لبغداد بعد خرابها ، ولمجتمع بغداد ، ومحلاتها ، وطبقات السكان فيها ، والعادات والأزياء والملابس .

أما الجزء الثانى من الرحلة ، ففيه ١٩ رسالة . تتناول سفريات أجريت إلى سلوقية وطاق كسرى ، ثم إلى آثار بابل والحلة وما جاورهما ، وإلى مخيم زبيد وبعض العشائر الأخرى ، وإلى المنتفق وسوق الشيوخ وما حوله . ويُلاحظ من هذه الرسائل أن صاحب الرحلة يعود إلى بغداد ثم يُغادرها متوجهًا إلى إيران ثانية عن طريق ديالى التى يكتب عنها شيئاً أيضاً .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن صاحب الرحلة يجنح فى رسائله هذه إلى التحامل على العشائر العربية والكردية ، ويصمهم بوصمات ونعوت قد لا تكون مناسبة ، وذلك فى معرض كلامه عن أخطار الطريق ، وتعرُّض المسافرين إلى السلب والنهب ، وفرض الإتاوة عليهم . ويُؤخذ عليه كذلك إصداره أحكاماً عامة فى بعض الأحيان من دون أن تستند إلا إلى حوادث فردية ، أو وقائع شاذة لا يُمكن أن تُتخذ مقياساً تُقاس به الأمور بصورة عامة .

وُلد جيمس بيلى فريزر فى أنفرنيس باسكتلاندا فى ١٧٨٣ ، وتوفى فى ريليك خلال يناير ١٨٥٦ ، ومما عُرف عنه فى أيامه أنه كان سائحاً ومؤلفاً ، وقد ذهب إلى الهند فى أول أدوار حياته ، وفى عام ١٨١٥ ارتاد جبال الهمالايا ، ودرس الكثير من أحوالها . وحينما عاد إلى لندن بعد ذلك ، عُين لمرافقة الأميرين الإيرانيين اللذين كانا منفيين فى إنجلترا : رضا قلى ميرزا ، ونجف قلى ميرزا ، وعاد معهما حتى أوصلهما إلى إسطنبول .

وفى عام ١٨٢٣ تزوّج ابنة اللورد ووهاوسلى ، وهى زوجته التى ظل يبعث إليها برسائله التى يُؤلف قسم منها قوام رحلته . وكانت بعض الملاحظات الفلكية والجغرافية ، التى دوّنها فى رحلاته وأسفاره ذات فائدة جلية فى رسم خرائط البلاد الآسيوية . وقد قام جعفر خياط بترجمة الجزء الخاص بالعراق فى رحلته ونشرته الدار العربية للموسوعات ببيروت عام ٢٠٠٦ ، بعنوان «رحلة فريزر إلى بغداد سنة ١٨٣٤» ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها مكتفين بالإشارة إلى أرقام الصفحات فى نهاية الاقتباسات بين قوسين .

وأول ذكر للأرمن فى رحلة فريزر يُطالعنا به عند حديثه عن بغداد ، فيذكرهم ضمن الجنسيات المختلفة قاطنة المدينة ، ثم يُشير إلى براعتهم فى تعاطى التجارة ، فيذكر أن "«معظم التجار الآن هم من أصل عربى ، وهناك عدد من اليهود والأرمن والنصارى التابعين للكنيستين الكاثوليكية والسريانية ، ويُلاحظ وجود الأكراد والإيرانيين والبدو بكثرة فى الأسواق» .

ثم يُشيد بالباعة الأرمن وأمانتهم فى بغداد ، فقد لفت انتباهه فى بغداد «الهدوء الرزين ، والجمود الذى يبدو على التاجر التركى ، وهو يجلس فوق المنصة العالية المنصوبة بالقرب من بابه ، مدخناً غليونه فى وسط الضجيج المحيط به ، كأنه لا يسمع شيئاً منه ولا

يملك الاهتمام الذى يجب أن يكون عند التاجر ليبيع ما عنده من سلع . وحينما يُراجعه أحد الزبائن يعرض عليه السلعة المطلوبة ببطء وسكون ويُنهى المعاملة إذا تم الاتفاق على السعر ، وإلا فيتابع تدخينه للشطب» ، وهكذا ، وصف التجار الأتراك بالجمود ، والبطء ، معترفًا "بأن الباعة اليهود والأرمن يُعوِّضون بسرعتهم وطلاقة لسانهم عن تثاقل الأتراك وتكاسلهم ، فإنهم مدركون نشطون فى التأكد من طلبات الزبائن وتزويدهم بها .

ثم يُشير إلى دور المبشر الإنجليزى المستر جروفز A. N. Groves بالتبشير بالكاثوليكية ، وأنه من ضمن نشاطه قيامه بفتح مدرسة ببغداد لأيتام النصارى من الأرمن وغيرهم ، واستقدم لها معلمين أرمن لتعليم اللغة الأرمنية «فمن مجموع الثمانية عشر خادماً وسباهياً الذين كان الكولونيل تايلور قد تركهم لرعاية المقيمية لم يبق فى نهاية الشهر غير أربعة ، وحتى هؤلاء أصيب اثنان منهم بعد ذلك ففارقا الحياة ، وكان فى المؤسسة التابعة للمستر جروفز خمسة معلمين للغتين العربية والأرمنية ، فأتى الموت على كل واحد منهم وأزالهم من الوجود» .

وقد استضاف فريزر معلماً أرمنياً فى داره فراراً من الطاعون الكبير فى بغداد ١٨٣١ ، ويشير إلى أن جروفز «قد تعهد بالعناية بعدد معين من الأحداث ، وهم أطفال بعض الأسر المسيحية فى بغداد ، فمنعته دوافع القيام بالواجب من اتخاذ خطوة كانت تُعد فى نظره تخلياً عن الواجب ، فقرر البقاء فى مكانه ، وبعد أن وضع ثقته بالعلى القدير الذى أنزل البلوى وهو قادر على إنقاذه أو القضاء عليه ، أغلق داره التى كانت تحتوى على اثنى عشر شخصاً ، من بينهم معلم أرمنى وأسرته ، وظل ينتظر النتيجة» .

وفتح داره أمام اللاجئات الأرمنيات فراراً من الطاعون والفيضان اللذين حطا على بغداد ، فى أثناء حصار جيش السلطان العثمانى بقيادة العمرى لبغداد ، وكان ممن استضافهم أرمنية روت له خبراً عن الطاعون الكبير ، قالت فيه : «إنها كانت قد عدت خمسين جثة وهى تُنقل للدفن فى فسحة لا تزيد مساحتها عن ستمئة ياردة ، ولم يكن السكان قادرين على بذل أى نوع من الجهد ، لأن الحيرة على ما يبدو قد شلت أيديهم وأذهلتهم فأفقدتهم رشدهم ، فجلسوا فى بيوتهم ينتظرون الموت الذى كان آتياً لا محالة» .

ثم يتطرق إلى الدور الاجتماعى الكبير الذى كانت النسوة الأرمنيات تقمن به فى بغداد فى تلك الظروف الحالكة شديدة الصعوبة ، فقد أنقذن الأطفال من الطاعون رغم خطر ذلك فى إصابتهن بالطاعون ، وأوضح الرحالة أنه «شوهدت بنتاً صغيرة عمرها اثنتا عشرة سنة وهى تحمل طفلاً بين ذراعيها فى الطريق ، وحينما سئلت عنه أجابت بأنها لم تكن تعرف من هو ، لقد وجدته فى الطريق وعلمت أن والديه قد توفيا ، وقد كان عمل الطفلة هذا طربا من العمل الخيرى الشائع جداً يومذاك ، وخاصة بين الإناث من الناس ، لكنه كان شيئاً مميتاً فى كثير من الأحايين ، إذ ذكرت امرأة أرمنية جاءت تستعطى شيئاً من السكر لطفل التقطته على هذه الشاكلة أن جارتها كانت قد أنقذت طفلين بنفس الطريقة بعد أن وجدتهما متروكين فى قارعة الطريق ، فمات الطفلان كلاهما ثم أعقبتهما هى نفسها» .

ثم ذكر أحد الأرمن الناجين من الطاعون للمبشر جروفز موت كل سكان محلته ببغداد فإن «سكان المئة والثلاثين داراً التى كانت تتكون منها محلته لم يبق منهم حىّ سوى سبعة وعشرين شخصاً فقط ، كما أخبر ابن الملا المتصل بالمستر جروفز أن المحلة التى يُقيم فيها هو لم يبق فيها حىّ ولا شخص واحد فقد ماتوا جميعاً» .

وقدّم لنا جيمس بلى فريزر وصفاً لملابس النساء الأرمنيات فى بغداد حينما قال «لم أتطرق حتى الآن إلى ذكر شئ عن طبقات النساء الدنيا لأنهن الكادحات المسترقات اللواتى يخلفن العوز فى جميع البلاد ، وبارتقائهن فى سلم الثروة والرفاه تُقلدن المتفوقات

عليهن ، فإنك تجدين النساء العربيات تطفن فى الشوارع غير محجباتٍ وبملابس رخيصة جداً، وهن يتغطين بالعباءة الأبدية ، وقد وشمت جلودهن بعلامات لا عد لها من الوشم ، أما المتزوجات منهن فتحملن فى أحد منخريهن خزامة من الذهب أو الفضة أو النحاس الأصفر تبعاً لإيرادهن وحالتهن المالية . وأعتقد أن الأرمنيات والكاثوليكيات تلبسن كالنساء التركيات تقريباً، لكن اليهوديات لهن زى مختلف لا أعرف شيئاً عنه ، كما أن أرمنيات الأماكن الأخرى لهن أزياؤهن الخاصة كذلك ، وقد قيل لى إن جميع الأزياء النسائية فى بغداد تختلف اختلافاً غير يسير عن الأزياء فى إسطنبول» .

وكان قد وصف ملابس المرأة التركية بأنها «ترتدى أولا قميصاً يُصنع من نسيج حريرى رقيق ذى ألوان مختلفة ، ويُفتح من الأمام إلى ما يقرب من المحزم ، لكنه يضم حول العنق بحلية من الحلى عادة ، ويكون هذا القميص مطرزاً تطريزاً جميلاً حول العنق وعلى طول الصدر ، كما تكون الأردان الطويلة الفضفاضة التى تبدو معلقة من خنقتىّ اليد المفتوحتين فى السترة معمولة بالذهب والفضة (الكلبدون) والحرير الملون بألوان مختلفة ، ويرتدى البعض منهن فوق هذا نوعاً من الصدار المزين بزينة جميلة جذابة ، تمتد من العنق إلى الوسط ، لكننى أعتقد أن هذه القطعة من الملابس تُستعمل فى الدرجة الأولى لستر عيب من العيوب فى اللباس الذى تُغطيه وتُلبس فوق القميص صدرية ذات ذيل طويل تتلبس فى الجسم تلبساً تاماً يظهر شكله إلى حد الوسط ، مع أردان ضيقة تبقى مفتوحة حتى المرفق تقريباً، وتصنع هذه من جميع أنواع الأقمشة الغالية كالحراير المشجرة أو السادة ، والأقمشة الموشاة والشال ، والقطيفة وما أشبه ، وتُزين بالوشى أو التطريز من جميع الأنواع تبعاً لذوق اللباسة ، ويرتدى بعضهن سترة قصيرة من قماش مماثل مبطنة بشئ من الفرو الناعم ، فرو السمور أو القاقم وموشاه بالكلبدون كذلك ، لكن الشائع الآن كما علمت استعمال الكورك أو رداء الفرو الطويل ، أما السراويل الطويلة الواسعة التى تكاد تختفى تحت سائر الألبسة فهى تُخاط بالحرير الملون الزاهى ، لكن السيدات التركيات تُبدين تذوقهن للأناقة والصرف فى لباس الرأس والمجوهرات عادة ، فلباس الرأس الذى يُسمى هنا «باشلك» يتكون اعتيادياً من منديل واحد أو منديلين ، أو شال تُلف حول الفيس (الطربوش) الأحمر الذى يُعتبر غطاء الرأس الوطنى الذى يلبسه الأتراك جميعهم والنصارى واليهود ، رجالا ونساءً، الداخلون فى حكم السلطان ، وهو يُصنع من اللباد أو القماش الأحمر ، وتكون له عذبة أو شرابة (بسكولة) من الخيوط الزرق ، ويُطرز الفيس الذى تلبسه السيدات تطريزاً باللؤلؤ ينطوى على الكثير من الذوق ، ويُبدل فى بعض الأحيان لون الشرابة والفيس بحيث يُلائم رغبة اللابسة ، ويلف الشال أو المنديل حول هذا بأشكال تفوق فى لفها أى شئ رأيته من هذا القبيل فى قبعات أو عمائم السيدات فى بلادنا نحن . وأعتقد أن أحسن ما يُستعمل من المناديل يُصنع فى أنوال ليون ، مع أن هناك مناديل مطرزة جميلة جداً من صنع إسطنبول ، لكننى ليس بوسعى أن أصف لكم أو أبالغ فى وصف الذوق النفيس والرقة المنطوية فى القماش ، فإنها تنطوى فى جميع ألوان القماش ودرجات الألوان ، وتُطرز أكاليل الأوراد فوقها ، تطريزاً كله ذوق وأناقة ، بكل درجة من درجات الألوان الرقيقة التى تختلط بكلبدون الذهب والفضة ، وحينما تلف المناديل الجميلة هذه حول الرأس يُلاحظ فى ذلك تعريض هذه الزينة والتطريز إلى الخارج بأجمل شكل ، على أن تبقى نهايتها مدلاة بشكل رشيق خاص ، ويكون الشال المستعمل على الدوام من أفخر أنواع الشال الكشميرى الذى تُطرز حواشيه بكلبدون الذهب والفضة أو باللؤلؤ وسائر المجوهرات ، وحينما يلبس لباس الرأس هذا يُضفر مع الشعر فى العمامة ليكون زينة قائمة بذاتها ، وتتدلى من ذلك ضفيرة أو

ضفيرتان إلى الخلف تنتهى كل منهما بشرابة من نقود الذهب أو المجوهرات، ويُعلّق ملفوفاً بالشعر من جهة واحدة تحت اللفة أو العمامة، حبل من خيوط اللؤلؤ يعقد بالأحجار الكريمة، وكذلك يُعلق مقدار من اللؤلؤ بأشكال مختلفة بجنبه تبعًا لذوق السيدة ورغبتها، أما المجوهرات التى يشيع استعمالها ولبسها فإننى لا أدرى كيف أصفها من حيث شكلها المختلف ومكانها ولونها، فهناك «الجيكة» وهى حلية صنوبرية الشكل توضع فى جهة واحدة و«التيته» فى الجهة الأخرى، و«عين الكونى» فى الأمام متدلية على الجبهة، وتكون هذه الحلى جميعها من الماس والياقوت والزمرد، وهناك بعد ذلك ألف شئ من الأشياء الأصغر كالفراشات والبكلات والدبابيس والأعلاق، مما لا يمكن تعدادها أو وصفها، والخلاصة إن لباس رأس السيدة التركية بكامل زينته من المجوهرات يكون كلا غنياً مذهلا، ويبدو لك فى الحال شيئاً بهياً جميلاً يمتلئ بالذوق ويتحدى الوصف.

وتزين الآذان بالأقراط، كما تحاك العنق بعدد من قلائد الماس والزمرد واللؤلؤ والسلاسل الذهب، وتشد أنواع «البازبند» على الذراع بين الكتف، والمرفق، وهى ذات قيمة كبيرة، وكذلك تتلألأ المعاصم على الشاكلة نفسها بأساور لا يمكن أن توصف من حيث عددها وتنوعها، كما يحاط المحزم بقطعة من القطيفة تشد بإبزيم من الذهب المزين بالأحجار الكريمة، ويثبت بالمنطقة نفسها عدد من قطع الماس، أما الفقراء فيكتفون بأحجار أرخص وشغل الذهب الدقيق، وفى النهاية، تغطى الأصابع بعدد لا يحصى من الخواتم والحلق المرصع بأحجار فى أدق الأحجام وأندر البريق، وحتى أصابع القدمين تكون لها زينتها من الأحجار، وهكذا تصبح السيدة التركية أثناء وقوفها أو تحركها كتلة من النور الباهر والرونق الأخاذ.

وقد نسيت أن أذكر، بين الحلى التى تزين بها الأيدى والأقدام، نوعًا غريبًا من الحلق يلبس بالإبهام وأصبع القدم وهو أشبه بنصف كشتبان يلبس وجانبه العريض يتجه إلى الأعلى، ويرصع بالزينة اللماعة والمجوهرات، وهناك عفواً، البوابيج الجميلة التى تحتمل أى نوع من الزينة الملائمة لذوق الحسناء وقابليتها على الصرف، وهذه لا تكاد تحفظ أقدامها الجميلة من السجاد الثمين الذى تمشى عليه، ولكنها لما كانت تستعمل فى التنقل من غرفة إلى أخرى فقط، فإن خفتها لا تحول دون الاستفادة منها.

وستدركون من هذا بلا شك أن لباس السيدة التركية ليس زاهياً جداً فحسب، بل إن ثمنه أيضاً يمكن أن يزداد إلى ما لا نهاية تبعاً لإيراد صاحبتها، لأن طراز زينتها يمكن أن يتغير وفقاً لذوقها، وقد كنت أتمنى أن أقول علاوة على هذا أن عقول اللابسات الحسناوات تزدان بحلى الفكر والمعرفة كما تزدان أجسامهن بالألبسة، غير أننى بالنسبة لجميع ما استطعت التوصل إليه من معلومات يمكن أن أقول إن هذا بعيد جداً عن الحقيقة والواقع، فالحقيقة أن جهل وسخافة وسماجة نساء الطبقة الراقية فى بغداد أشياء تلفت النظر بصورة مؤلمة».

وكان آخر ما ذكره فريزر عن الأرمن فى رحلته هو أن مترجم القنصلية البريطانية فى بغداد سنة ١٨٣٤ أرمنى، فعند حديثه عن أن والى بغداد داود باشا قد أعيد إلى منصبه، «وسوف لا يحدث شئ أكثر من هذا سوى السلم والصفاء، وقد توقف إطلاق النار تقريباً، بعد أن كانت تخمد وتعود بين آونة وأخرى»، ذكر أن مخبره بهذه الأنباء السارة هو أغا ميناس المترجم الأول فى المقيمية البريطانية فى بغداد، وأنه «بينما كان أغا ميناس أحد موظفى المقيمية يُخبرنا بهذه الأنباء السارة سمعت، إطلاقات المدافع وهى تدوى فى الجو»، وأغا ميناس هذا كان من نسله ميناس الأرمنى الذى كان معروفًا فى بغداد حتى توفى عام ١٩٤٨.